

إسماعيل ناصيف

أَرْوَحُ مَا قِيلَ فِي الْحُورِ



دار البَيْت
بَيت



لِزَوْجِ مَا قِيلَ
فِي
الْمَوْصِفِ

الرئيس ناصيف

الأزواج ما قبل
في
الموسم

دار الحبيبة
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لإدار الجليل
الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

المقدمة

خرجنا في هذه السلسلة من «أروع ما قيل» عن فنون الأدب وأغراضه مرتين. أولاهما حين خَصَّصنا كتابًا لأروع ما قيل في الزواج، وثانيتها في هذا الكتاب الذي خَصَّصناه لأروع ما قيل في الموت.

ورب سائل يسأل: لماذا خَصَّصنا هذين الموضوعين دون غيرهما بكتابين مستقلين؟ والجواب أنهما أهم حدثين يتعرَّض لهما الإنسان في حياته، وكلاهما بداية ونهاية، ولكل منهما علائق وشيجة بالدين، والمجتمع، والتجربة الإنسانية على مدى العصور وفي مختلف المجتمعات.

والناظر في الكتابين يرى أننا نوَّعنا فصولهما ما أمكننا ذلك، فمن الدين نُتف، ومن الأمثال أخرى، ومن الحكمة طاقة ثالثة، إلى ما استطعنا الوصول إليه من طرائف، ونوادر، وكل ما فيه حكمة، أو موعظة، أو نادرة، أو خبر طريف، أو ما يدعو إلى إعمال العقل فيه، أو نحو ذلك.

وليس لنا الفضل في كل ذلك سوى فضل الاختيار، والتنسيق، وقد اقتضى الأول أن أقرأ الكثير من الكتب لكي أعود من قراءتي لها ببعض ما وجدته رائعًا. وقد أكون غير موفق في بعض ما اخترت، أو قد يكون عند بعضهم ليس «أروع ما قيل»، لكنني اجتهدت أن يكون «من أروع ما قيل» إن لم يكن «أروع»، فإن أصبْتُ فالخير أردت، وإلا فحسبي أنني حاولت. والله الموفق والمعين.

المؤلف

الباب الأول من الدين

الفصل الأول: من الديانة الإسلامية

أولاً: من القرآن الكريم

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

(الأنبياء : ٣٥)

* * *

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

(النحل : ٦١)

* * *

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾.

(النساء : ٧٨)

* * *

﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بَأْيَ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

(لقمان : ٣٤)

* * *

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾.

(الجمعة : ٨)

* * *

﴿وما الحياة الدنيا، إلَّا لعب ولهو، وللدار الآخرة خير للذين يتقون،
أفلا تَعْقِلُونَ﴾.

(الأنعام : ٣٢)

* * *

﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدون عن سبيل الله،
ويبغونها عوجًا، أولئك في ضلال بعيد﴾.

(إبراهيم : ٣)

* * *

﴿يا قوم، إنما هذه الحياة الدنيا متاع، وإن الآخرة هي دارُ الْقَرَارِ﴾.

(غافر : ٣٩)

* * *

ثانيًا: من أقوال النبي محمد (ﷺ)

«لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ، وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمرُهُ إِلَّا خَيْرًا».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

«إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

«لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ أَصَابِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَخِينِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

«لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

«يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

«كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ
يُنَمَّى عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

«كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

«مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطِيعًا إِلَّا وَالْمَوْتُ أَفْطَحَ مِنْهُ».

النبي محمد (ﷺ)

* * *

الفصل الثاني: من الديانة المسيحية

الحقُّ الحقُّ أقول لكم: إنَّ لم تقع الحبة من الحنطة في الأرض وتمتَّ تبقى وحدها، وإذا ماتت أخرجت حبةً كثيرًا.

(يوحنا ١٢ : ٢٤)

* * *

طوبى للأموات الذين يموتون في رضا الرب! يقول الروح:
فليستريحوا منذ اليوم من المتاعب، لأنَّ أعمالهم تصحبهم.

(رؤيا يوحنا ١٤ : ١٣)

* * *

دع الموتى يدفنون موتاهم.

(متى ٨ : ٢٢)

* * *

إنَّ أجرة الخطيئة هي الموت.

(رسالة بولس إلى رومة ٦ : ٢٣)

* * *

لا تشمت بموت أحد، إننا بأجمعنا نموت.

(ابن سيراخ ٨ : ٨)

* * *

الفصل الثالث: من الديانات الهندية

لا عاصم للإنسان من الموت حتى ولو اتخذ السماء أو البحر أو كهوف الجبال أو أية بقعة من الدنيا ملجأ له .

(من أقوال الدامايدا)

* * *

كما يسوق راعي البقر قطيعه إلى اصطبل ، فكذلك تسوق الشيخوخة والموت الأحياء .

(من أقوال الدامايدا)

* * *

يحيق الموت بالواحد ويجرفه كما يجرف الطوفان النائم .

(من أقوال الدامايدا)

* * *

إذا حانت منية الإنسان فلن يغني عنه أولاده ولا أبوه ولا الأقربون .

(من أقوال الدامايدا)

* * *

كما يبكي الأطفال عبثًا للحصول على القمر ، كذلك يبكي الأحياء

على الأموات.

(من كتاب الجتناكس)

* * *

على الناس أن يستقبلوا الموت بسرور استقبالهم عيد منتصف الشهر.

(من كتاب الجتناكس)

* * *

عندما يُشرف العصفور على الموت تصبح زقزقته حزينة، وعندما
يشرف الإنسان على الموت ترتدي أقواله طابع الفضيلة.

(من الديانة الكونفوشيوسية)

* * *

إنني لأعلم علم اليقين أنّ الموت لن يخطئني.

(من أقوال الجتناكس)

* * *

إذا جاء الموت بعد الظهر فإنّ البرء قد يأتي في المساء، وإذا جاء
الموت في المساء فقد يأتي البرء في الصباح.

(من الزرادشتية)

* * *

كيف نفهم الموتى ونحن لا نعلم عن الحياة إلا يسيراً.

(من الكونفوشيوسية)

* * *

الباب الثاني

من الأمثال

الفصل الأول: من الأمثال العربيّة

- الموت في الجماعة طيّب.

* * *

- ليس حيّ على الزمان بياق.

* * *

- موت الحرّة خير من العرّة.

* * *

- الموت حوض مورود.

* * *

- الموت ريحانة المؤمن.

(النبي محمد ﷺ)، وأصبح هذا القول مثلاً عربياً)

* * *

- الموت السجّيج^(١) خير من الحياة الذميمة.

* * *

(١) السجّيج: السهل، الهين واللّين.

- الموت الفادح خير من العي (أو: العيش) الفاضح.

* * *

- موت في قوت وعزّ أصلح من حياة في ذلّ وعجز.

* * *

- احرص على الموت توهب لك الحياة.

* * *

- ذكر الموت جلاء القلوب.

* * *

- كفى بالموت نأياً واغتراباً.

* * *

الفصل الثاني: من الأمثال العالمية

الموت يهزأ بالطبيب.

مثل إنكليزي

* * *

تستمد الحياة قيمتها من الموت.

مثل هندي

* * *

الموت هو المساوي الكبير بين الناس.

مثل إنكليزي

* * *

الموت والقبر لا يميزان بين الأشخاص.

مثل إنكليزي

* * *

- الموت أكبر من أي جبل، وأصغر من أي شعرة في آن معاً.

مثل ياباني

* * *

- البحث عن بلاد ليس فيها أضرحة، يؤدي إلى بلاد أكلة لحوم البشر.

مثل ماغاشي

* * *

- الموت جمل يركع أمام كل الأبواب.

مثل تركي

* * *

- الموت هو صديق المشرف على الموت.

مثل دانمركي

* * *

- الموت هو أمام عيني الشيخ، أما الشاب فالموت خلفه.

مثل أستوني

* * *

- الموت لا ينظر مطلقاً إلى الإنسان

مثل ليتواني

* * *

- الميّت يقول إنه ذاهب لِعَدِّ النجوم، وإنّه سيعود بعد أن يعدّها جميعاً.

مثل تاهيتي

* * *

الفصل الثالث: من الأمثال اللبنانية

- أكثر من الموت شو في؟
- ألف عيشة بالكدر، ولا نومة تحت الحجر.
- ألف كلمة جبان، ولا كلمة الله يرحمو.
- الله عطى، والله أخذ.
- ألي يتاجر بالرواح، لا يكون نواح.
- ألي بتجي ورقتو، بروح غصب عن رقتو.
- ألي بموت، وألي بفوت، شيلن من راسك.
- أمر (أو: شر) من الموت انتظارو.
- بين الستين والسبعين هلاك بني آدمين.
- تعددت الأسباب والموت واحد.
- الجنازة حامية، والميت كلب.
- حب الموت (أو: الشر) غيرك بيكرهو.
- خلصوا زيتاتو.
- رب الموت خاف من الموت.
- ربنا ما ساوانا إلا بالموت.

- شو بينفع البكي بعد ما حملوه للمقبرة؟
- شو الموت نَعَس؟
- قيمة الميِّت دَفَنُو.
- كاس دايرَ عَ الجميع.
- ما حدا بموت إلّا تَ تجي ساعتو.
- ما في علة تَ إلها دوا، إلّا علة الموت ما إلها دوا.
- ما كلّ من عاش يُحمد، ولا كلّ من مات يُفقد.
- ما ميِّت ما شفيت مين مات؟
- مات محمد وما تعطلت إمتو.
- الموت أقرب من الحاجب للعين.
- الموت بساوي بين الجميع.
- الموت عَ الكترة جَلُو.
- الموت فجي، والسعادة منين تجي؟
- موت الفقير، وتعريضة الكبير ما حدا بيعرف فين.
- الموت ما بيرحم حدا.
- الموت ما في شماتة.

* * *

الباب الثالث

من الحكمة

الفصل الأول: من أقوال الحكماء العرب

- الموت باب الآخرة .

الحسين بن علي

* * *

- لا ينجو من الموت من خافه ، ولا يُعطى البقاء من أحبه .

الإمام علي

* * *

- موت الصالح راحة لنفسه ، وموت الطالح راحة للناس .

الإمام علي

* * *

- استهينوا بالموت ، فإنّ مرارته في خوفه .

الإمام علي

* * *

- عشّ ما شئت فأنت ميت ، وأحبّ من شئت فأنت مفارقة ، واعمل ما شئت فأنت مجزيّ به .

الإمام الغزالي

* * *

- احرص على الموت توهب لك الحياة.

أبو بكر الصديق

* * *

- الموت أهون ما بعده وأشد ما قبله.

أبو بكر الصديق

* * *

نسيان الموت صداً للقلب.

الإمام علي

* * *

- إنَّ الموت فضح الدنيا.

الحسن بن علي

* * *

- نعم نصيحة القلب ذكر الموت، يطرد فضول الأمل، ويكفّ غرّب
المنى، ويهون المصائب، ويحول بين القلب والطغيان.

معبد الجهنني

* * *

- ما دَخَلَ ذِكْرُ الموت بيتاً إلا رضي أهله بما قسم الله لهم، وجدّوا
في أمر آخرتهم.

* * *

- أبلغ العظام النظر إلى محلّ الأموات، ومصارع البنين والبنات.

* * *

- قال الحسن بن علي وقد قعد عند رأس ميت :
إنَّ امرأ هذا آخره لأهل أن يزهد فيما قبله ، وإنَّ امرأ هذا أوَّلُه لأهل أن
يحذر ما بعده .

* * *

- يا ابن آدم ، إنَّ جوارحك سلاح الله عليك بأيتها شاء قتلك .

* * *

- من كان حياته بنفسه يكن مماته بذهاب روحه ، فتصعب عليه ،
ومن كان حياته بربه ، فإنه يتقل من حياة الطبع إلى حياة الأصل ، وهي
الحياة على الحقيقة .

* * *

- أرى داعي الموت لا يقلع ، وأرى من مضى لا يرجع ، ومن بقي
فإليه ينزع .

عبدالله بن شداد

* * *

- يا ابن آدم ، إنما أنت عدد ، فإذا مضى يومك فقد مضى بعضك .
الحسن بن علي

* * *

- من أكثر من ذكر الموت اكتفى باليسير ، ومن علم أنَّ الكلام عمل
قلَّ كلامه إلا فيما ينفع .

عمر بن عبد العزيز

* * *

- قال رجل للحسن بن علي: مات فلان فجأة، فقال: لو لم يمت
فجأة لمرض فجأة ثم مات.

العقد الفريد

* * *

- كان أبو الدرداء إذا رأى جنازة قال: اغدي فإننا رائحون، أو روعي
فإننا غادون.

العقد الفريد

* * *

الفصل الثاني: من أقوال الحكماء الأجانب

- اثنان لا يغيّران رأيهما أبدًا: الجاهل والموت.

لوك

* * *

- إنّ الرجل الذي ليس في روحه استعداد للموت بشرف في سبيل أمر جليل لا يحقّ له أن يعيش في الحياة.

مارتن

* * *

- الموت خير من المذلة.

سفوكليس

* * *

- الخوف من الموت شرّ من الموت.

بيليوس

* * *

- عندما تمزح العجوز تغازل الموت.

بوليو سيروس

* * *

- يجب أن يبكي الإنسان عند ولادته، وليس عند وفاته.

مونتسكيو

* * *

- ينبغي للحكيم أن يغادر هذه الدنيا بالقدر نفسه من الحشمة الذي يغادر به الوليمة.

ديموفيلوس (القرن السادس ق.م.)

* * *

- الموت المتوقع هو أشنع أنواع الميئات.

باكلیدس الخيوسي (القرن الخامس ق.م.)

* * *

- كل شيء من التراب وإلى التراب يعود.

ميناندر (القرن الرابع ق.م.)

* * *

- المصيبة أن تبقى سنابل القمح بلا حصاد، وكذلك المصيبة ألا يموت البشر.

إيكتيتوس (مطلع القرن الثاني)

* * *

- الموت خير كبير ما دام ليس شرًا.

بوبليليوس سيروس (القرن الأول ق.م.)

* * *

- إنه لمن السعادة أن يموت المرء قبل أن يتوسل العون من الموت.

بويليليوس سيروس * * *

- المرء يموت مرتين عندما يموت بإرادة آخر.

بويليليوس سيروس * * *

- الموت يُمسك بمن يفرّ.

هوراس (حوالي السنة ٢٣ ق.م.)

* * *

- الموت يساوي بين كل الحالات.

كلوديانوس (حوالي السنة ٣٩٠)

* * *

- الموت القصير هو الخير الأعظم في الحياة البشرية.

بليينوس الأكبر (حوالي السنة ٧٧)

* * *

- هناك دواء لكل شيء، ما عدا الموت.

بونافتور دي بيريه (١٥٥٨)

* * *

- ثلاثة تدخل البيوت دونما استئذان، الديون، والشيخوخة، والموت.

- الحياة العقيمة موت مسبق. غوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢)

* * *

أروع ما قيل في الموت - ٣م

- لا الشمس ولا الموت يمكنهما التحديق.

سرفانتيس (١٦١٣)

* * *

- ينبغي عدم تحريك رماد الموتى.

انطونيو بيريز (١٥٩٨)

* * *

- ليس ثمة أي قلعة تحمي من الموت.

ب.ج. مارتين (١٨٥٩)

* * *

- الموت حاصد لا يعرف القيلولة.

سرفانتيس (١٦١٥)

* * *

- هناك أموات يرتاحون، وآخرون لا يعرفون الراحة.

بيريز غالدوس (١٩٠٩)

* * *

- للحَيِّ أصدقاء قليلون، وليس للميت أحد.

موليير (١٦٥٣)

* * *

- المرء لا يموت إلا مرة واحدة، وذلك لمدة طويلة.

موليير (١٦٥٣)

* * *

- الموت لا يفاجيء الحكيم أبدًا، فهو مستعد دومًا للرحيل.

لافونتين (١٦٧٨)

* * *

- البشرية تتألف من أموات أكثر منها من أحياء.

أوغست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧)

* * *

- الموت ليس غدرًا.

جول فاليس

* * *

- هناك أموات ينبغي قتلهم.

ف. دينوايه (١٨١٨ - ١٨٦٩)

- حب العمل، الأسرة، الدين، الفن، الوطنية هي كلمات لا معنى لها بالنسبة إلى من يموت جوعًا.

أو. هنري (١٨٦٢ - ١٩١٠)

* * *

- ليس الموت الحقيقة النهائية. إنه يبدو لنا أسود، كما تبدو لنا السماء زرقاء، ولكنه لا يسود الوجود، مثلما لا يلطخ اللازورد السماوي جناحي الطير.

رايندرانات طاغور (١٨٦١ - ١٩٤١)

* * *

- إن الموت، هو في النهاية، المنتصر الوحيد.

ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣)

(قول موجه منه إلى الجنرال ديغول)

* * *

- ليس الموت سوى فزاعة.

سقراط (القرن الخامس ق.م.)

* * *

- ليس الموت هو الرهيب، بل الموت المخزي.

إيكتيتس (مطلع القرن الثاني)

* * *

- البشر يخشون الموت مثلما يخشى الأولاد الظلمات.

فرنسيس بايكون (١٦٠٥)

* * *

- كلما كان الرجل فاضلاً، قلّ خوفه من الموت.

صمويل دجونسون (١٦ أيلول ١٧٧٧)

* * *

- التألم ولا الموت: هوذا شعار البشر.

لافونتين (١٦٦٨)

* * *

- الخوف من الموت يعني تكريم الحياة كثيرًا.

توما جوفروي (١٨٣٦)

* * *

- من يتقبل الموت بسهولة ليس امرأً بئسًا.

سينيكا (حوالي السنة ٥٥)

* * *

- من يحتقر حياته يكن سيد حياة الآخرين.

سينيكا (حوالي السنة ٦٤)

* * *

- هناك أسباب مختلفة لاحتقار الحياة، ولكن ليس ثمة مبرر لاحتقار الموت.

لاروشفوكو (١٦١٣ - ١٦٨٠)

* * *

- الموتى يذهبون بسرعة.

برغر (١٧٤٧ - ١٧٩٤)

* * *

- الميت منذ ستة أشهر ميت مثل آدم.

ه.ح. بون (١٨٥٥)

* * *

الفصل الثالث: من أقوال الشعراء العرب

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيلاً كاسفاً باله قليل الرجاء

* * *

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آله حذباء محمول
كعب بن زهير

* * *

وما المرء إلا كالللال وضوئه يوافي تمام الشهر ثم يغيب

* * *

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميم لا تنفخ
أبو ذؤيب الهذلي

* * *

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرحى وثنياء باليد
طرفة بن العبد

* * *

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

* * *

مشيناها خُطَى كُتِبَتْ عَلَيْنَا وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطَى مَشَاهَا
وَمَنْ كَانَتْ مَنِيَّتُهُ بِأَرْضٍ فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا

* * *

إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بَدًّا فَمَنْ الْعَارُ أَنْ تَمُوتَ جَبَانًا
الْمُتَنَبِّي

* * *

كَمْ مَاتَ قَوْمٌ وَمَا مَاتَتْ مَكَارِمُهُمْ وَعَاشَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ

* * *

وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعٌ وَلَا بَدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ
لِبَيْدِ بْنِ رَبِيعَةَ

* * *

وَقَدْ فَارَقَ النَّاسُ الْأَحَبَّةَ قَبْلَنَا وَأَعْيَا دَوَاءُ الْمَوْتِ كُلُّ طَبِيبٍ
الْمُتَنَبِّي

* * *

الْمَوْتُ دَاءٌ لَا دَوَاءَ لَهُ إِلَّا التَّقَى وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ

* * *

لِلْمَوْتِ فِينَا سَهَامٌ وَهِيَ صَائِبَةٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مُحَالَةَ زَائِلٌ
لِبَيْدِ بْنِ رَبِيعَةَ

* * *

ليت شعري فإنني لست أدري أي يوم يكون آخر عمري
وبأي البلاد تُقبضُ روحي وبأي البقاع يُحفر قبري
أبو العتاهية

* * *

للموت فينا سهام وهي صائبة من فاته اليوم سهم لم يفته غدا

* * *

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي هو قبل الموت بانيها
الإمام علي بن أبي طالب (حوالي ٦٠٠ - ٦٦١)

* * *

موت التقي حياة لا نفاذ لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء

* * *

فلو كان هول الموت لا شيء بعده لهان علينا الأمر واحتقر الأمر
ولكنه حشر ونشر وجنة ونار وما قد يستطيل به الخبر

* * *

من كان يرجو أن يعيش فإنني أصبحت أرجو أن أموت فأعتقا
في الموت ألف فضيلة لو أنها عُرِفَت لكان سبيله أن يعشقا

* * *

والمرء يفرح بالأيام يقطعها وكل يوم مضى يُدني من الأجل

* * *

وأيدي الندي في الصالحين قروض كفى بالموت نأيا واغترابا

* * *

لا تحسبن الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت، ولكنّ ذا أفضع من ذاك لذّ السؤال

* * *

جزى الله عنا الموت خيرا فإنه أبرّ بنا من كل برّ وأرأف
يعجل تخليص النفوس من الأذى ويُدني من الدار التي هي أشرف

* * *

وإذا كان منتهى العمر موت فسواء طويله والقصير

* * *

الموت باب وكل الناس تدخله يا ليت شعري بعد الباب ما الدارُ

* * *

في فرقة الأحباب شغل شاغل والموت صدقًا فرقة الإخوان

* * *

كُتب الموت على الخلق فكّم فلّ من جيشٍ وأفنى من دول
ابن الوردي

* * *

لما أتى معاوية بن أبي سفيان موْتُ زياد بن أبيه توجّع، ثم قال:

وأفردتُ سهمًا في الكنانة واحدًا سيُرمى به أو يكسر السهمَ كاسِرُهُ

* * *

ومن كان ذا بابٍ شديدٍ وحاجِبٍ فعَمَّا قليل يهجر البابَ حاجِبُهُ

* * *

ألا إِنَّمَا جسمي لروحي مطيَّةٌ ولا بدَّ يومًا أن يُعزَى من الرحلي
ابن المعتز

* * *

ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يبريء مثله فيما مضى
هلك المداوي والمداوى والذي جلب الدواءَ وباعه ومن اشترى

* * *

سُبِقْنَا إلى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا بها من جيئةٍ وذهوبٍ
تملُكها الآنِي تملُكُ سالبٍ وفارقها الماضي فراقَ سلبٍ
المتنبى

* * *

وما المرءُ إلَّا كالشهابِ وضوئِهِ يصيرُ رمادًا بعد إذ هو ساطعُ
ليبد بن ربيعة

* * *

وأحكم بيتَ قالته العربُ في وَصفِ الموتِ بيتُ أُمِّةٍ بن أبي
الصَّلْتِ، حيث يقول:

يُوشِكُ مَنْ قَرَّ مِنْ مِنيَّتِهِ فِي بَعْضِ غِرَاتِهِ يُوَافِقُهَا
مَنْ لَمْ يَمُتْ عَبْطَةً يَمُتْ هَرَمًا لِلْمَوْتِ كَأْسٍ وَالْمَرْءُ ذَاتِقَهَا

* * *

وقال أضحى بن الفرج: كان بنجران عابدٌ يصيح في كلِّ يومٍ صيحتين
بهذه الأبيات:

قَطَعَ البقاءَ مَطالُعُ الشمسِ وعُدُّوها من حيث لا تُمسي
وطلوغُها حمراءُ قانيةٌ وغروبُها صفراءُ كالوزس
اليومُ يُخبر ما يجيء به ومضى بفضلِ قضاائه أمسٍ

* * *

قال آخر:

زَيَّنتُ بيتك جاهلاً وعَمَرْتَهُ ولعلَّ غيرَكَ صاحبُ البيتِ
مَنْ كانت الأيامُ سائرةً به فكأنه قد حلَّ بالموتِ
والمرءُ مُزْتَهَنٌ بسَوْفٍ وَلَيْتَنِي وهلاكُهُ في السَّوْفِ واللَّيْتِ
للهِ دَرٌّ فَتَى تَدَبَّرَ أَمْرَهُ فَعَدَا وراح مُبَايِرَ الموتِ

* * *

وقال صريع الغواني:

كم رأينا من أناس هلكوا قد بَكُوا أَحْبَابَهُمْ ثم بُكُوا
تَرَكَوا الدُّنْيَا لِمَنْ بَعْدَهُمْ وَدُّهُمْ لو قَدَّمُوا ما تَرَكَوا
كم رأينا من مُلُوكٍ سَوْقَةٍ ورأينا سَوْقَةً قد مَلَكَوا

* * *

وقال الصَّلَتَانِ العَبْدَيَّ:

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرَ رَ كَرُ الْعَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِيِّ
إِذَا لَيْلَةٌ أَهْرَمَتْ يَوْمَهَا أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ فَتِي
نُزُوحٍ وَنَغْدٍ لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةٌ مِّنْ عَاشٍ لَا تَنْقُضِي
تَمُوتُ مَعَ الْمَرْءِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ

* * *

وكان سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ يَسْتَحْسِنُ قَوْلَ عَبْدِ بْنِ زَيْدٍ:

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيَارِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ثُمَّ عَادَ مِنْ بَعْدِهَا وَتَمُودُ
بَيْنَمَا هُمْ عَلَى الْأَسِرَّةِ وَالْأُذَى حَمَاطٍ أَفْضَتْ إِلَى التَّرَابِ الْخُدُودُ
وَصَحِيحٌ أَمْسَى يَعُودُ مَرِيضًا وَهُوَ أَدْنَى لِلْمَوْتِ مِمَّنْ يَعُودُ
ثُمَّ لَمْ يَنْقُضِ الْحَدِيثُ وَلَكِنْ بَعْدَ ذَا كُلِّهِ وَذَاكَ الْوَعِيدُ

* * *

وقال أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فِي وَصْفِ الْمَوْتِ:

كَأَنَّ الْأَرْضَ قَدْ طُوِيَتْ عَلَيَّا وَقَدْ أُخْرِجْتُ مِمَّا فِي يَدَيَا
كَأَنَّ قَدْ صِرْتُ مُنْفَرِدًا وَحِيدًا وَمُرْتَهَنًا هُنَاكَ بِمَا لَدَيَا
كَأَنَّ الْبَاكِيَاتِ عَلَيَّ يَوْمًا وَلَا يُغْنِي الْبُكَاءُ عَلَيَّ شَيْئًا
ذَكَرْتُ مَنِيَّتِي فَنَعَيْتُ نَفْسِي أَلَا أَسْعِدُ أَخِيكَ يَا أَخِيَا

* * *

وقال:

سَتَخْلُقُ جِدَّةً وَتَجُودُ حَالُ وَعِنْدَ الْحَقِّ تُخْتَبَرُ الرُّجَالُ

وللدُّنْيَا ودائعُ في قُلُوبٍ بها جَرَتْ القَطِيعَةُ والوَصَالُ
تَخَوُّفُ ما لَعَلَّكَ لا تَراه وترْجُو ما لَعَلَّكَ لا تَنالُ
وقد طَلَعَ الهِلَالُ لَهْذِمِ عُمري وَأَفْرَحُ كُلَّما طَلَعَ الهِلَالُ

* * *

وله أيضًا:

مَنْ يَعْشَى يَكْبُرُ وَمَنْ يَكْبُرُ يَمُتْ والمَمَایا لا تُبالي من أَتَتْ
نَحْنُ فِي دارِ بَلاءٍ وَأَدَى وشَقَاءٍ وَعِنايٍ وَعَنَتْ
مَنْزَلٌ ما يَثْبُتُ المَرءُ بِهِ سالِماً إِلَّا قَلِيلاً إِنْ ثَبَّتْ
أَيُّها المَعْرُورُ ما هَذا الصُّبا لو نَهَيْتَ النَفْسَ عَنْه لانتَهَتْ
رَحِمَ اللهُ أَمراً أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ إِذْ قال خَيْرًا أَوْ سَكَتْ

* * *

وقال ابن عبد ربه:

أَتَلَهُو بَيْنَ باطِيَةِ وَزِيرٍ وَأَنْتَ مِنَ الهِلاكِ على شَفِيرِ
فِيا مَنْ غَرَّهُ أَمَلٌ طَوِيلٌ يُؤدِّيهِ إِلى أَجَلٍ قَصِيرِ
أَتَفْرَحُ والمَمْنِيَّةُ كُلَّ يَوْمٍ تُرِيكَ مَكَانَ قَبْرِكَ فِي القُبُورِ
هي الدُّنْيَا فَإِنْ سَرَّتْكَ يَوْمًا فَإِنَّ الحُزْنَ عاقِبَةُ السُّرُورِ
سَتُسَلِّبُ كُلَّ ما جَمَعْتَ مِنْها كَعَارِيَةٍ تُرَدُّ إِلى المُعِيرِ
وَتَعْتَاضُ اليَقِينِ مِنَ التَّظَنِّي وَدَارَ الحَقِّ مِنْ دارِ العُرُورِ

* * *

ولأبي العتاهية:

وَلَيْسَ مِنْ مَنَزَلِ يَأْوِيهِ ذُو نَفْسٍ إِلَّا وَلِلْمَوْتِ سَيْفٌ فِيهِ مَسْئُولُ

* * *

وله أيضًا:

مَا أَقْرَبَ الْمَوْتَ مَنَا تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنَا
كَأَنَّهُ قَدْ سَقَانَا بِكَأْسِهِ حَيْثُ كُنَّا

* * *

وله أيضًا:

أَوْمَلُ أَنْ أَخْلَدَ وَالْمَنَايَا يَثْبُنَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ التَّوَاجِي
وَمَا أَذْرِي إِذَا أَمْسَيْتُ حَيًّا لَعَلِّي لَا أَعِيشُ إِلَى الصَّبَاحِ

* * *

وقال الغزال:

أَضْبَحْتُ وَاللَّهِ مَجْهُودًا عَلَى أَمَلٍ مِنْ الْحَيَاةِ قَصِيرٍ غَيْرِ مُمْتَدِّ
وَمَا أَفَارِقُ يَوْمًا مَنْ أَفَارِقُهُ إِلَّا حَسِبْتُ فِرَاقِي آخَرَ الْعَهْدِ
أَنْظُرُ إِلَيَّ إِذَا أُدْرِجْتُ فِي كَفْنِي وَأَنْظُرُ إِلَيَّ إِذَا أُدْرِجْتُ فِي اللَّحْدِ
وَأَقْعُدُ قَلِيلًا وَعَايِنَ مَنْ يُقِيمُ مَعِيَ مِمَّنْ يُسَبِّحُ نَعْشِي مِنْ دَوِي وَدِّي
هَيْهَاتَ كُلُّهُمْ فِي شَأْنِهِ لَعِبٌ يَزِمِي التَّرَابَ وَيَخْثُوهُ عَلَى خَدِّي

* * *

وقال أبو العتاهية:

نَعَى لَكَ ظِلَّ الشَّبَابِ الْمَشِيبُ وَنَادَتْكَ بِأَسْمِ سِوَاكَ الْخُطُوبُ

فَكُنْ مُسْتَعِيدًا لِرَيْبِ الْمَمُوتِ فَإِنَّ الَّذِي هُوَ آتٍ قَرِيبٌ
وَقَبْلَكَ دَاوَى الطَّبِيبِ الْمَرِيضِ فَعَاشِ الْمَرِيضُ وَمَاتِ الطَّبِيبُ
يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ يَتُوبُ فَكَيْفَ تَرَى حَالَ مَنْ لَا يَتُوبُ

* * *

وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّؤَلِيُّ:
أَيُّهَا الْأَمِلُ مَا لَيْسَ لَهُ رُبَّمَا عَرَّ سَفِيهَا أَمَلُهُ
رُبَّ مَنْ بَاتَ يُمَنِّي نَفْسَهُ حَالَ مَنْ دُونَ مُنَاهُ أَجَلُهُ
وَالْفَتَى الْمُخْتَالُ فِيمَا نَابَهُ رُبَّمَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ حِيلُهُ
قُلْ لِمَنْ مَثَلٌ فِي أَشْعَارِهِ يَهْلِكُ الْمَرْءُ وَيَبْقَى مَثَلُهُ
نَافِسُ الْمُخْسَنِ فِي إِحْسَانِهِ فَسَيَكْفِيكَ سَنَاءُ عَمَلُهُ

* * *

الباب الرابع

عند الاحتضار

لَقِيَ أَبُو بَكْرٍ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ، فَرَأَاهُ كَاسِقًا مُتَغَيِّرًا لَوْنُهُ، فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ مُتَغَيِّرًا لَوْنُكَ؟ قَالَ: لِكَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ أَسْأَلْهُ عَنْهَا؛ قَالَ وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنِّي أَعْلِمُ كَلِمَةً مِّنْ قَالِهَا عِنْدَ الْمَوْتِ مَحْصُوتٌ ذُنُوبُهُ، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَيْدِ الْبَحْرِ، فَأَنْسِيْتُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهَا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَعْلَمُكُمُهَا، وَهِيَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ

* * *

أَبُو الْحُبَابِ قَالَ: لَمَّا أَحْتَضَرَ مُعَاذٌ قَالَ لِعَاصِمَتِهِ: وَيْحَكَ! هَلْ أَصْبَحْتَ خَائِفًا؟ قَالَتْ: لَا، ثُمَّ تَرَكَهَا سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ لَهَا: انْظُرِي، فَقَالَتْ: نَعَمْ؛ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ صَبَاحٍ إِلَى النَّارِ. ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْمَوْتِ، مَرْحَبًا بِزَائِرٍ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ، أَفْلَحَ مِنْ تَيْدٍ. اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَجِبْ الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا لِحَاجَتِي الْإِنْفَارِ، وَغَرَسَ الْأَشْجَارَ، وَلَكِنْ لُمُكَابِدَةِ اللَّيْلِ الطَّوِيلِ، وَظُمًا الْهَوَاجِرِ فِي الْحَرِّ الشَّدِيدِ، وَمُزَاحِمَةِ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكْبِ فِي مَجَالِسِ الذِّكْرِ.

* * *

وَلَمَّا حَضَرَتِ الْوَفَاةُ عَمَرَ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ لِرَفِيقِهِ: نَزَلَ بِي الْمَوْتُ وَلَمْ أَتَأَهَّبْ لَهُ. اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ مَا سَنَحَ لِي أَمْرَانِ لَكَ فِي أَحَدِهِمَا رِضًا وَلِي فِي الْآخَرِ هَوًى، إِلَّا أَثَرْتُ رِضَاكَ عَلَى هَوَايَ.

* * *

ولما حضرت الوفاة عُمر بن الخطاب: قال لولده عبد الله بن عمر:
ضَعْ خَدِّي عَلَى الْأَرْضِ عَلَّ رَبِّي أَنْ يَتَعَطَّفَ عَلَيَّ وَيَرْحَمَنِي.

* * *

قال ابن السمَّك: دخلتُ على يزيد الرِّقَاشي وهو في الموت، فقال
لي: سَبِّحْنِي الْعَابِدُونَ وَقُطِّعْ بِي، وَاهْفَافْ!

* * *

موسى الأسواري قال: دخلتُ على أَرْدَا مَرْدٍ وهو ثَقِيلٌ فَإِذَا هُوَ
كَالْخُفَّاشِ^(١) لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا رَأْسُهُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا هَذَا، مَا حَالُكَ؟ قَالَ: وَمَا
حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بَغِيرَ زَادٍ، وَيَنْطَلِقُ إِلَى مَلِكٍ عَدْلٍ بَغِيرَ حُجَّةٍ،
وَيَدْخُلُ قَبْرًا مُوحِشًا بَغِيرَ مُؤْنَسٍ؟

* * *

قال سقراط لما تجرَّع السم:
اخْلَصْ اخْلَصْ يَا كَثِيفٌ، وَاصْعِدْ يَا مَنْ لَمْ يَقْبَلِ الْأَدْنَسَ.

* * *

وقال كونفوشيوس:
لَقَدْ عَلِمْتُ الْبَشَرَ كَيْفَ يَعْشَوْنَ.

* * *

وقال النبي محمد (ﷺ):
بَلِ الرَفِيقُ الْأَعْلَى، بَلِ الرَفِيقُ الْأَعْلَى.

* * *

(١) يشير إلى ضالته. وفي بعض الأصول: «كالخفاء».

وقال الخليفة عمر بن الخطاب:
ثكلت عمر أمه إن لم يغفر له ربه.

* * *

وقال الإمام علي وقد سأله القوم أن يعظهم، وكان يجود بنفسه
الكريمة: يعظكم سكوتي، وخفوت أطرافي.

* * *

وقال المأمون:
يا من لا يموت ارحم من يموت.

* * *

وقال أحد ملوك الفراعنة:
إنني أستقبل الموت سعيدًا مطمئنًا لأنني سأتحرّر من أعباء الحكم
والنساء.

* * *

قال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك: كيف تجدك يا بُني؟ قال:
أجدني في الموت فأحتسبني، فإنّ ثواب الله خير لك منّي؛ قال: والله يا
بُني لأن تكون في ميزاني أحبّ لي من أن أكون في ميزانك؛ قال: وأنا والله
لأن يكون ما تُحب أحبّ إليّ من أن يكون ما أُحبّ.

* * *

لَمَّا احْتَضَرَ عمرُ بن عبد العزيز، رحمه الله، أَسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ مَسْلَمَةُ بْنُ
عبد الملك، فَأَذِنَ لَهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُخَفِّفَ الْوَقْفَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ، وَقَفَ عِنْدَ
رَأْسِهِ، فَقَالَ: جَزَاكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنَّا خَيْرًا، فَلَقَدْ أَلَنْتَ لَنَا قُلُوبًا

كانت علينا قاسية، وجعلت لنا في الصالحين ذُكْرًا.

* * *

حمّاد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك، قال: كانت فاطمة جالسةً عند رسول الله ﷺ: فترا كبت عليه كُزْب الموت، فرفع رأسه وقال: وا كُزياه! فبكت فاطمة وقالت: واكُزياه لكُزبك يا أبتاه! قال: لا كُزب على أبيك بعد اليوم.

* * *

وقال شارلمان:

مولاي أسلمتك روحي، وأوصيك بها.

* * *

وقال الحجاج بن يوسف:

اللهم اغفر لي.. فانهم يزعمون أنك لا تغفر لي.

* * *

وقال غوثيه:

أريد النور.

* * *

وقال هويس:

سائب وثبة كبرى في سبيل الأبدية.

* * *

وقال ميرابو لخادمه:

أسند هذا الرأس، فإنه أقوى رأس في فرنسا.

* * *

وقال «كوزمونكهوس»: وهكذا يجب أن نفرق يا جسدي بعد أن اتفقنا سنوات طويلة. وإنه لمن المحزن أن تنتهي صحبتنا.

* * *

وقال سعد زغلول: أنا انتهيت.

* * *

وقال أمير الشعراء أحمد شوقي: إني امرؤ انتهت فسلام على أولادي وأصدقائي.

* * *

قالت عائشة وأبوها أبو بكر الصديق يحتضر:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ رَبِيعَ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ^(١)

قالت عائشة: فنظر إليّ كالغضبان وقال: ذلك رسول الله ﷺ. ثم أغمى عليه، فقالت:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَ جَتِ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ^(٢)

قالت: فنظر إليّ كالغضبان وقال لي: قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾^(٣). ثم قال: انظروا ملاءتي فاعسلوهما وكفنوني فيهما، فإنّ الحيّ أخرج إلى الجديد من الميت.

* * *

وقال معاوية حين حضرته الوفاة:

أَلَا لَيْتَنِي لَمْ أَغْنِ فِي الْمُلْكِ سَاعَةً وَلَمْ أَكُ فِي اللَّذَاتِ أَغْشَى النَّوَاطِرِ

(١) البيت من قصيدة لأبي طالب.

(٢) البيت من قصيدة لحاتم بن عبدالله.

(٣) ق: ١٩.

وَكُنْتُ كَذِي طَمْرَيْنٍ عَاشَ بِبُلْعَةٍ لِيَالِي حَتَّى زَارَ ضَنْكَ الْمَقَابِرِ

* * *

لَمَّا ثَقُلَ مُعَاوِيَةُ وَيزِيدُ غَائِبٌ، أَقْبَلَ يَزِيدُ، فَوَجَدَ عُثْمَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ بَنَ سُفْيَانَ جَالِسًا، فَأَخَذَ بِيَدِهِ، وَدَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ، وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَكَلَّمَهُ يَزِيدُ، فَلَمْ يُكَلِّمَهُ، فَبَكَى يَزِيدُ وَتَضَوَّرَ^(١) مُعَاوِيَةَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بُنِي، إِنَّ أَعْظَمَ مَا أَخَافُ اللَّهَ فِيهِ مَا كُنْتُ أَصْنَعُ لَكَ. يَا بُنِي، إِنِّي خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَ إِذَا مَضَى لِحَاجَتِهِ وَتَوَضَّأَ، أَصَبَ الْمَاءَ عَلَى يَدَيْهِ، فَتَنَظَّرَ إِلَى قَمِيصٍ لِي قَدْ أَنْخَرَقَ مِنْ عَاتِقِي، فَقَالَ لِي: يَا مُعَاوِيَةُ: أَلَا أَكُشُوكَ قَمِيصًا؟ قُلْتُ: بَلَى: فَكَسَانِي قَمِيصًا لَمْ أَلْبَسْهُ إِلَّا لَبَسَةً وَاحِدَةً، وَهُوَ عِنْدِي؛ وَاجْتَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَخَذْتُ جُزَاةَ شَعْرِهِ وَقَلَامَةَ أَظْفَارِهِ فَجَعَلْتُ ذَلِكَ فِي قَارُورَةٍ، فَإِذَا مِتُّ يَا بُنِي فَاغْسِلْنِي، ثُمَّ اجْعَلْ ذَلِكَ الشَّعْرَ وَالْأظْفَارَ فِي عَيْنَيَّ وَمِنْخَرِي وَفَمِي، ثُمَّ اجْعَلْ قَمِيصَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شِغَارًا^(٢) مِنْ تَحْتِ كَفْنِي، إِنْ نَفَعَ شَيْءٌ نَفَعَ هَذَا.

* * *

لَمَّا احْتَضَرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، جَمَعَ بَيْنَهُ فَقَالَ: يَا بَنِي، مَا تُغْنُونَ عَنِّي مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْئًا؟ قَالُوا: يَا أَبَانَا، إِنَّهُ الْمَوْتُ، وَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ لَوْفَيْنَاكَ بَأَنْفُسِنَا؛ فَقَالَ: أَسْنِدُونِي، فَأَسْنَدُوهُ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنِي فَلَمْ أَتَمِرْ، وَرَجَرْتَنِي فَلَمْ أَزْدَجِرْ، اللَّهُمَّ لَا قُوَّةَ فَاَنْتَصِرْ، وَلَا بَرِيءَ فَاَعْتَذِرْ، وَلَا مُسْتَكْبِرَ بَلْ مُسْتَغْفِرٌ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَلَمْ يَزَلْ يُكْرِّرُهَا حَتَّى مَاتَ. قَالَ: وَأَخْبَرْنَا رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ قَالَ لِبْنِيهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: إِنِّي لَسْتُ فِي الشُّرْكِ الَّذِي لَوْ مِتُّ عَلَيْهِ أُدْخِلْتُ النَّارَ، وَلَا فِي الْإِسْلَامِ الَّذِي لَوْ مِتُّ عَلَيْهِ أُدْخِلْتُ

(١) تَضَوَّرَ: تَلَوَّى مِنَ الْوَجَعِ.

(٢) الشِّغَارُ: مَا يَلْبَسُ فَوْقَ الْجَسَدِ مَبَاشَرَةً.

الجنة، فمهما قَصَرْتُ فيه فَإِنِّي مُسْتَمْسِكٌ بِهَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَقَبَضَ عَلَيْهَا يَدَهُ، وَقَبَضَ لَوْقَتِهِ. فَكَانَتْ يَدُهُ تُفْتَحُ، ثُمَّ تَتْرَكَ فَتَنْقَبِضُ. وَقَالَ لِبَنِيهِ: إِنَّ أَنَا مَتٌ فَلَا تَبْكُوا عَلَيَّ، وَلَا يَتَّبِعْنِي مَادُخٌ وَلَا نَائِحٌ، وَشُئُوا عَلَيَّ التُّرَابَ شُئًا، فَلَيْسَ جَنَّبِي الْأَيْمَنَ أُولَىٰ بِالتُّرَابِ مِنَ الْأَيْسَرِ، وَلَا تَجْعَلُوا فِي قَبْرِي خَشْبَةً وَلَا حَجَرًا، وَإِذَا وَارِثُومُونِي، فَاقْعِدُوا عِنْدَ قَبْرِي قَدَرَ نَحْرٍ جَزُورٍ وَتَفْصِيلِهَا أَسْتَأْنَسُ بِكُمْ.

* * *

وقال ويلسون:

أشكر الله على أنني أتممت واجبي.

* * *

وقال وليم هنتر:

ليت عندي من القوة ما يمكنني من تحريك القلم، حتى أشرح سهولة الموت ولذته.

* * *

وقال إسماعيل صبري:

يَا مَوْتُ خُذْ مَا أَبْقَيْتَ الْأَيَّامَ وَالسَّاعَاتِ مِنِّي
بَيْنِي وَبَيْنَكَ خُطْوَةً إِنَّ تَخْطُهَا خَفَفَتْ عَنِّي

* * *

وقال شوبان:

أَيْنَ حَبِيبَتِي^(١) لَقَدْ وَعَدْتَنِي بِأَنَّنِي سَأَمُوتُ عَلَى ذِرَاعَيْهَا.

* * *

(١) حبيبته هي الكاتبة جورج صاند.

الباب الخامس

عند القبر

الفصل الأول: القول عند المقابر

قال بعضهم: خَرَجْنَا مَعَ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ تُرِيدُ الْحَجَّ، فَلَمَّا بَلَّغْنَا النَّبَاحَ^(١)
وَصِرْنَا إِلَى مَقَابِرِهَا التَّفَتْنَا إِلَيْنَا، فَقَالَ:

لِكُلِّ أَنَاسٍ مَقْبَرٌ بِفَنَائِهِمْ فَهَمْ يَنْقُضُونَ وَالْقُبُورَ تَزِيدُ
فَمَا إِنْ تَزَالَ دَارُ حَيٍّ قَدْ أَخْرَبَتْ وَقَبْرٌ بِأَفْنَاءِ الْبُيُوتِ جَدِيدُ
هُمْ جِيزَةُ الْأَحْيَاءِ أَمَا مَزَارُهُمْ فِدَانٍ وَأَمَّا الْمُلتَقَى فَبَعِيدُ

* * *

وقال: مررتُ بيزيد الرِّقَاشِيِّ وهو جالسٌ بين المدينة والمقبرة، فقلت
له: ما أَجْلَسَكَ هَاهُنَا؟ قَالَ: أَنْظُرُ إِلَى هَذَيْنِ الْعَسْكَرَيْنِ، فَعَسْكَرٌ يَحْدِفُ
الْأَحْيَاءَ وَعَسْكَرٌ يَلْتَقِمُ الْمَوْتَى. ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا أَهْلَ الْقُبُورِ
الْمُوحِشَةِ، قَدْ نَطَقَ بِالْخَرَابِ فَنَاوُهَا، وَمُهَّدَ بِالْثَّرَابِ بِنَاوُهَا، فَمَحَلُّهَا
مُقْتَرَبٌ، وَسَاكُنُهَا مُغْتَرَبٌ، لَا يَتَوَاصِلُونَ تَوَاصَلَ الْإِخْوَانِ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ
تَزَاوَرَ الْجِيرَانِ، قَدْ طَحَنَهُمْ بِكُلِّكُلِهِ الْبَلَى، وَأَكَلْتَهُمُ الْجَنَادِلُ وَالْثَّرَى.

* * *

(١) النباح: اسم موضع.

وكان عليُّ بن أبي طالب إذا دَخَلَ المقبرة قال: السلامُ عليكم يا أهل الدِّيار الموحِّشة، والمَحالِّ المُقْفِرة، من المؤمنين والمؤمنات، اللهم اغفر لنا ولهم، وتَجَاوَزْ بعفوك عَنَّا وعنهم. ثم يقول: الحمد لله الذي جعل لنا الأرض كِفَاتًا^(١)، أحياء وأمواتا، والحمد لله الذي منها خَلَقْنَا و[جعل] إليها مَعَادِنَا، وعليها مَحْشَرُنَا؛ طُوبَى لِمَن ذَكَرَ المَعَاد، وعمل الحسنات، وقَنَعَ بالكِفَاف، ورَضِيَ عن الله عزَّ وجلَّ.

* * *

وكان النبي ﷺ إذا دَخَلَ المَقبرة قال: السلامُ عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.

* * *

وكان الحَسَن البَصْرِيُّ إذا دخل المقبرة قال: اللهم رَبِّ هذه الأجساد البالية، والعِظام النخرة، التي خَرَجْتَ من الدُّنيا وهي بك مُؤمنة، أَذْخِلْ عليها رَوْحًا منك وسَلَامًا مَنًّا.

* * *

وكان عليُّ بن الفضل إذا دَخَلَ المقبرة يقول: اللهم أَجْعَلْ وَقَاتَهُم نَجاةً لهم مما يَكْرَهُونَ، وأَجْعَلْ حِسَابَهُم زيادةً لهم فيما يُحِبُّونَ.

* * *

(١) كِفَاتًا: ملجأ وحزرا.

الفصل الثاني: الوقوف على القبور وتأين الموتى

وَقَفَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: قُلْتُ فَقِيلَ لَنَا، وَأَمَرْتُ فَحَفِظْنَا، وَبَلَغْتَ عَنْ رَبِّكَ فَسَمِعْنَا. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(١). وَقَدْ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَجِئْنَاكَ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا. فَمَا بَقِيَتْ عَيْنٌ إِلَّا سَأَلَتْ.

* * *

وَقَفَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ عَلَى قَبْرِ أَبِيهَا ﷺ، فَقَالَتْ: إِنَّا فَقَدْنَاكَ فَقَدَ الْأَرْضِ وَابِلُهَا وَغَابَ مَذْغِبَتُ عَنَّا الْوَحْيُ وَالْكِتَابُ فَلَيْتَ قَبْلَكَ كَانَ الْمَوْتُ صَادَقَنَا لَمَّا نُعِيتَ وَحَالَتْ دُونَكَ الْكِتَابُ

* * *

حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: لَمَّا فَرَعْنَا مِنْ دَفْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَتْ عَلَيَّ فَاطِمَةُ فَقَالَتْ: يَا أَنَسُ، كَيْفَ طَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَخْتُمُوا عَلَى وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ، ثُمَّ بَكَتْ وَنَادَتْ: يَا أَبَتَاهُ! أَجَابَ رُبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهُ! مِنْ رَبِّهِ مَا أَدْنَاهُ، يَا أَبَتَاهُ! مَنْ رَبُّهُ نَادَاهُ، يَا أَبَتَاهُ! إِلَى

(١) النساء: ٦٤.

جبريل نثعه، يا أبتاه! جنة الفردوس مأواه. قال: ثم سكتت، فما زادت شيئاً.

ولما دُفِن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقبل عبد الله بن مسعود وقد فاتته الصلاة عليه، فوقف على قبره يبكي ويطح رداءه، ثم قال: والله لئن فاتتني الصلاة عليك لا فاتني حُسنُ الثناء، أما والله لقد كنت سخيًا بالحق، بخيلًا بالباطل، ترضى حين الرضا، وتسخط حين السخط، ما كنت عيابًا ولا مداحًا، فجزاك الله عن الإسلام خيرًا.

* * *

ووقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه على قبر حَبَّاب، فقال: رحم الله حَبَّابًا، لقد أسلمَ رَاغِبًا، وجاهد طائعًا، وعاش زاهدًا، وأبتلي في جسمه فصبر، ولن يُضَيِّعَ الله أجرَ من أحسن عملاً.

* * *

ولما تُوفي علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، قام الحسن بن علي رضي الله عنهما، فقال: أيها الناس، إنه قُبِضَ فيكم الليلة رَجُلٌ لم يسبقه الأولون ولم يُذكره الآخرون، قد كان رسولُ الله ﷺ يبعثه فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله، لا ينثني حتى يفتح الله له، ما ترك صفراء ولا بينضاء إلا سبعمائة درهم أعدّها لخادم له.

* * *

عبد الرحمن بن الحسن بن محمد بن مُضْعَب قال: لما مات داود الطائي

تَكَلَّمَ ابْنُ السَّمَاءِ فَقَالَ : إِنَّ دَاوُدَ نَظَرَ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ آخِرَتِهِ ، فَأَغْشَى بَصَرُ الْقَلْبِ بَصَرَ الْعَيْنِ ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَنْظُرْ إِلَى مَا إِلَيْهِ تَنْظُرُونَ ، وَكَأَنَّكُمْ لَمْ تَنْظُرُوا إِلَى مَا إِلَيْهِ نَظَرُ ، وَأَنْتُمْ مِنْهُ تَعْجِبُونَ ، وَهُوَ مِنْكُمْ يَعْجَبُ ، فَلَمَّا رَأَى مَقْتُولِينَ مَغْرُورِينَ ، قَدْ أَذْهَلَتِ الدُّنْيَا عُقُولَكُمْ ، وَأَمَاتَتْ بِحُبِّهَا قُلُوبَكُمْ ، أَسْتَوْحِشُ مِنْكُمْ ، فَكُنْتُ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ حَسِبْتُهُ حَيًّا وَسَطَ أَمْوَاتٍ . يَا دَاوُدَ ، مَا أَعْجَبُ شَأْنَكَ بَيْنَ أَهْلِ زَمَانِكَ ! أَهَنْتَ نَفْسَكَ وَإِنَّمَا تُرِيدُ إِكْرَامَهَا ، وَأَتَعَبْتَهَا وَإِنَّمَا تُرِيدُ رَاحَتَهَا ، أَخَشَشْتَ الْمَطْعَمَ وَإِنَّمَا تُرِيدُ طَيِّبَهُ ، وَأَخَشَشْتَ الْمَلْبَسَ وَإِنَّمَا تُرِيدُ لَيِّنَهُ ، ثُمَّ أَمَتَ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ ، وَقَبَرْتَهَا قَبْلَ أَنْ تُقْبَرَ ، وَعَذَّبْتَهَا قَبْلَ أَنْ تُعَذَّبَ ، سَجَّنتَ نَفْسَكَ فِي بَيْتِكَ وَلَا مُحَدِّثَ لَهَا وَلَا جَلِيسَ مَعَهَا ، وَلَا فِرَاشَ تَحْتِكَ ، وَلَا سِتْرَ عَلَى بَابِكَ ، وَلَا قُلَّةَ تُبَرِّدُ فِيهَا مَاءَكَ ، وَلَا صَفْحَةَ يَكُونُ فِيهَا عَدَاؤُكَ وَعِشَاؤُكَ . يَا دَاوُدَ ، مَا تَشْتَهِي مِنَ الْمَاءِ بَارِدَهُ ، وَلَا مِنَ الطَّعَامِ طَيِّبَهُ ، وَلَا مِنَ اللَّبَاسِ لَيِّنَهُ ، بَلَى ، وَلَكِنْ زَهَدْتَ فِيهِ لَمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَمَا أَصْغَرَ مَا بَدَلْتَ وَمَا أَحْقَرَ مَا تَزَكَّتَ فِي جَنْبِ مَا رَغِبْتَ وَأَمَلْتَ ! لَمْ تَقْبَلْ مِنَ النَّاسِ عَطِيَّةً ، وَلَا مِنَ الْإِخْوَانِ هَدِيَّةً ، فَلَمَّا مِتَّ شَهَرَكَ رَبُّكَ بِفَضْلِكَ ، وَأَلْبَسَكَ رِذَاءَ عَمَلِكَ ، فَلَوْ رَأَيْتَ مَنْ حَضَرَكَ عَلِمْتَ أَنَّ رَبَّكَ قَدْ أَكْرَمَكَ وَشَرَّفَكَ .

* * *

وَقَفَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ عَلَى قَبْرِ أَخِيهِ فَأَنشَدَ :

فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَى قَتِيلًا رُزِئْتُهُ بِجَانِبِ قَوْسَى مَا مَشَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ
بَلَى إِنَّهَا تَغْفُو الْكُلُومَ وَإِنَّمَا نُؤْكَلُ بِالْأَذْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي

* * *

ووقف محمد بن الحنفية على قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما
فَحَنَقَتْهُ الْعَبْرَةُ، ثُمَّ نَطَقَ فَقَالَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ أَبَا مُحَمَّدٍ، فَلْتُنْ عَزَّتْ حَيَاتُكَ
فَلَقَدْ هَدَّتْ وَفَاتُكَ، وَلِنِعْمَ رُوحَ ضَمَمِهِ بَدَنُكَ، وَلِنِعْمَ الْبَدَنُ بَدَنُ ضَمَمِهِ كَفَنُكَ،
وكيف لا يكون كذلك وأنت بقيّة ولد الأنبياء، وسليل الهدى، وخامس
أصحاب الكساء^(١)، غَدَّتْكَ أَكْفُ الْحَقِّ، وَرُبِيتَ فِي حِجْرِ الْإِسْلَامِ، فَطَبْتُ
حَيًّا وَطَبْتُ مَيِّتًا، وَإِنْ كَانَتْ أَنْفُسُنَا غَيْرَ طَيِّبَةٍ بِفِرَاقِكَ، وَلَا شَاكَّةٌ فِي الْخِيَارِ
لَكَ.

* * *

وَوَقَفَتْ عَائِشَةُ عَلَى قَبْرِ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَتْ: نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَكَ، وَشَكَرَ
لَكَ صَالِحَ سَعْيِكَ، فَقَدْ كُنْتُ لِلدُّنْيَا مُذِلًّا بِإِذْبَارِكَ عَنْهَا، وَكُنْتُ لِلْآخِرَةِ مُعِزًّا
بِإِقْبَالِكَ عَلَيْهَا، وَلْتُنْ كَانَ أَجَلَ الْحَوَادِثِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رُزْؤُكَ، وَأَعْظَمَ
الْمَصَائِبِ بَعْدَهُ فَقُدُّكَ، إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَيَعِدُ بِحُسْنِ الصَّبْرِ فَيْكَ وَحُسْنِ الْعَوَظِ
مِنْكَ، فَأَنَا أَنْتَجِزُ مَوْعُودَ اللَّهِ بِحُسْنِ الْعَزَاءِ عَلَيْكَ، وَأَسْتَعِيزُ بِهِ مِنْكَ
بِالِاسْتِغْفَارِ لَكَ، فَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، تَوَدِّعَ غَيْرَ قَالِيَةٍ لَكَ، وَلَا زَارِيَةٍ
عَلَى الْقَضَاءِ فَيْكَ، ثُمَّ انْصَرَفَتْ.

* * *

لَمَّا قُبِضَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُجِّي بِتَوْبٍ، فَارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ

(١) أصحاب الكساء هم رسول الله ﷺ وفاطمة وعلي والحسن والحسين عليهم السلام، وكان
رسول الله ﷺ جللهم معه بكساء ودعا لهم فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم
الرجس وطهرهم تطهيرا. وفي أصحاب الكساء نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنْكُمُ الرِّجْسَ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣).

بالبكاء عليه ودَهَش القوم كيوم قُبِضَ رسول الله ﷺ، وجاء عليُّ بن أبي طالب باكيًا مُسرِعًا مسترجعًا حتى وَقَفَ بالباب وهو يقول: رَحِمَكَ اللهُ أبا بكر، كنت والله أولَ القوم إسلامًا، وأخلصهم إيمانًا، وأشدَّهم يقينًا، وأعظمهم عناء، وأحفظهم على رسول الله ﷺ، وأحربهم على الإسلام، وأحانهم على أهله، وأشبههم برسول الله ﷺ خُلُقًا وَفَضْلًا وَهَذْيًا وَسَمَاءً؛ فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيرًا، صدَّقت رسول الله ﷺ حين كَذَّبَهُ الناس، ووَاسِيَتَهُ حين بَخِلُوا، وقمت معه حين قعدوا، سَمَّاكَ اللهُ في كتابه صِدِّيقًا: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصُّدُقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾^(١) يُريد محمدًا ويُريدك. كنت والله للإسلام حِصْنًا، وعلى الكافرين عَذَابًا، لم تُقَلِّلْ حُجَّتَكَ، ولم تَضَعِفْ بصيرتَكَ، ولم تَجْبُنْ نفسك. كنت كالجبل لا تُحَرِّكُهُ العواصف ولا تُزِيلُهُ القَوَاصِفُ، كنت كما قال رسول الله ﷺ: ضَعِيفًا في بدنك، قَوِيًّا في أمر الله، متواضعًا في نَفْسِكَ، عَظِيمًا عند الله، قليلًا في الأرض، كثيرًا عند المؤمنين، لم يَكُنْ لأحدٍ عِنْدَكَ مَطْمَعٌ، ولا لأحدٍ عِنْدَكَ هَوَادَةٌ، فالقويُّ عِنْدَكَ ضَعِيفٌ حَتَّى تَأْخُذَ الْحَقُّ مِنْهُ، والضعيفُ عِنْدَكَ قَوِيٌّ حَتَّى تَأْخُذَ الْحَقُّ لَهُ، فلا حَرَمْنَا اللهُ أَجْرَكَ، ولا أَضَلْنَا بَعْدَكَ.

* * *

وَقَفَ عبد الملك بن مَرْوَانَ على قبر معاوية فقال: تالله إن كنت إلا كما علمت، يُنْطَقُكَ الْعِلْمُ، وَيُسْكِنُكَ الْجِلْمُ. ثم أَنشَأَ يقول:

(١) الزمر: ٣٣ .

وما الدَّهر والأيام إلَّا كما ترى رَزِيَّةَ مالٍ أو فِرَاقَ حَسِيبٍ

* * *

الهيثم بن عدي قال : لما هَلَكَ زيادُ أَسْتَعْمَلَ مُعَاوِيَةَ الضَّحَّاكَ عَلَى الْكُوفَةِ ،
فلما دخلها ، سأل عن قبر زياد ، فذُلَّ عليه ، فَأَتَاهُ حَتَّى وَقَفَ بِهِ ، ثُمَّ قَالَ :
أَبَا الْمُغِيرَةِ وَالِدِنَا مُفْجَّعَةٌ وَإِنَّ مِنْ عَرَّتِ الدُّنْيَا لَمَعْرُورُ
قَدْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْمَعْرُوفِ مَعْرِفَةٌ وَكَانَ عِنْدَكَ لِلنُّكْرَاءِ تَشْكِيرُ
لَوْ خَلَّدَ الْخَيْرُ وَالْإِسْلَامُ ذَا قَدَمٍ إِذَا لَخَلَّدَكَ الْإِسْلَامُ وَالْخَيْرُ
وَالْأَبْيَاتُ لِحَارِثَةِ بَنِ زَيْدٍ يَزْنِي زِيَادًا .

* * *

قال المدائني : لما دَفَنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فَاطِمَةَ
عليهما السلام تَمَثَّلَ عِنْدَ قَبْرِهَا ، فَقَالَ :
لِكُلِّ أَجْتِمَاعٍ مِنْ خَلِيلَيْنِ فُرْقَةٌ وَكُلُّ الَّذِي دُونَ الْمَمَاتِ قَلِيلُ
وَإِنَّ أَفْتَقَادِي وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ دَلِيلٌ عَلَى أَنْ لَا يَدُومَ خَلِيلُ

* * *

وَقَفَ أَبُو ذَرٍّ الْهَمْدَانِي عَلَى قَبْرِ ابْنِهِ ذَرٍّ فَقَالَ : يَا ذَرُّ ، شَغَلَنِي الْحُزْنُ
لَكَ عَنِ الْحُزْنِ عَلَيْكَ ، فَلَيْتَ شِعْرِي مَا قُلْتَ وَمَا قِيلَ لَكَ . ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ
إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ لَكَ إِسَاءَتَهُ إِلَيَّ ، فَهَبْ لَهُ إِسَاءَتَهُ إِلَيْكَ . فَلَمَّا انْصَرَفَ عَنْهُ
التَفَتَ إِلَى قَبْرِهِ فَقَالَ : يَا ذَرُّ ، قَدْ انْصَرَفْنَا وَتَرَكْنَاكَ ، وَلَوْ أَقْمَنَا مَا نَفَعْنَاكَ .

* * *

وَقَفْتُ أَعْرَابِيَّةً عَلَى قَبْرِ أَبِيهَا فَقَالَتْ: يَا أَبَتِ، إِنَّ فِي اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ فَقْدِكَ عَوَضًا، وَفِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مُصِيبَتِكَ أَسْوَةٌ، ثُمَّ قَالَتْ: اللَّهُمَّ، نَزِلْ بِكَ عَبْدُكَ مُقْفِرًا مِنَ الزَّادِ، مُحْشَوًشٍ الْمِهَادِ، غَنِيًّا عَمَّا فِي أَيْدِي الْعِبَادِ، فَقِيرًا إِلَى مَا فِي يَدَيْكَ يَا جَوَادَ، وَأَنْتَ، أَيُّ رَبِّ، خَيْرٌ مِنْ نَزْلِ بِهِ الْمُؤْمِلُونَ، وَاسْتَعْنِي بِفَضْلِهِ الْمَقْلُونَ، وَوَلِّجْ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ الْمُذْنِبُونَ. اللَّهُمَّ فَلْيَكُنْ قَرَى عَبْدِكَ مِنْكَ رَحْمَتُكَ، وَمِهَادُهُ جَنَّتُكَ، ثُمَّ أَنْصَرَفْتُ.

* * *

تَوَفِّيَ رَجُلٌ كَانَ مُشْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ بِالذُّنُوبِ فَتَحَامَى النَّاسُ جِنَازَتَهُ، فَبَلَغَ عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ خَبْرَهُ، فَأَوْصَى إِلَى أَهْلِهِ أَنْ خُذُوا فِي جِهَازِهِ فَإِذَا فَرَعْتُمْ فَأَذْنُونِي، ففعلوا وشهدوا عمر بن ذر وشهده الناس معه، فلما فرغ من دفنه وقف عمر بن ذر على قبره فقال: يَرْحَمُكَ اللَّهُ أَبَا فُلَانٍ، فَلَقَدْ صَحِبْتُ عُمَرَكَ بِالتَّوْحِيدِ، وَعَقَّرْتُ لِلَّهِ وَجْهَكَ بِالسُّجُودِ، فَإِنْ قَالُوا مُذْنِبٌ وَذُو خَطَايَا، فَمَنْ مَتَا غَيْرَ مُذْنِبٍ وَغَيْرُ ذِي خَطَايَا؟

* * *

قَالَ الْأَضْمَعِيُّ: دَخَلْتُ بَعْضَ مَقَابِرِ الْأَعْرَابِ وَمَعِيَ صَاحِبٌ لِي فَإِذَا جَارِيَةٌ عَلَى قَبْرِ كَأَنَّهَا تِمَثَالٌ وَعَلَيْهَا مِنَ الْحَلِيِّ وَالْحُلَلِ مَا لَمْ أَرَ مِثْلَهُ وَهِيَ تَبْكِي بَعِينَ غَزِيرَةً وَصَوْتَ شَجِيٍّ. فَالْتَفْتُ إِلَى صَاحِبِي. فَقُلْتُ: هَلْ رَأَيْتَ أَعْجَبَ مِنْ هَذِهِ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، وَلَا أَحْسَبُنِي أَرَاهُ. ثُمَّ قُلْتُ لَهَا: يَا هَذِهِ، إِنِّي أَرَاكَ حَزِينَةً وَمَا عَلَيْكَ زَيِّ الْحُزْنِ: فَأَنْشَأَتْ تَقُولُ:

فَإِنْ تَسْأَلَانِي فِيمَ حُزْنِي فَإِنِّي رَهِينَةُ هَذَا الْقَبْرِ يَا فَتَيَانِ
وَإِنِّي لَأَسْتَخِيهِ وَالتُّرْبَ بَيْنَنَا كَمَا كُنْتُ أَسْتَخِيهِ حِينَ يَرَانِي
أَهَابُكَ إِجْلَالاً وَإِنْ كُنْتُ فِي الثَّرَى مَخَافَةً يَوْمَ أَنْ يَشُوكَ لِسَانِي

ثم اندفعت في البكاء وجعلت تقول:

يَا صَاحِبَ الْقَبْرِ يَا مَنْ كَانَ يَنْعَمُ بِي بِالْأَوْكَاثِ فِي الدُّنْيَا مُوَاسَاتِي
قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ فِي حَلِي وَفِي حُلِّي كَأَنِّي لَسْتُ مِنْ أَهْلِ الْمُصِيبَاتِ
أَرَدْتُ آتِيكَ فِيمَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ أَنْ قَدْ تُسَرُّ بِهِ مِنْ بَعْضِ هَيْئَاتِي
فَمَنْ رَأَنِي رَأَى عَبْرَى مُوَلَّهَةً عَجِيبةً الزَّيِّ تَبْكِي بَيْنَ أَمْوَاتِ

* * *

وقال: رَأَيْتُ بِصَحْرَاءَ جَارِيَةً قَدْ أَلْصَقَتْ خَدَّهَا تَبْكِي بَيْنَ أَمْوَاتِ

وتقول:

خَدِّي تَقِيكَ خُشُونَةَ اللَّخْدِ وَقَلِيلَةَ لَكَ سَيِّدِي خَدِّي
يَا سَاكِنَ الْقَبْرِ الَّذِي بَوَفَاتِهِ عَمِيثٌ عَلَيَّ مَسَالِكُ الرُّشْدِ
اسْمَعْ أَبُتُّكَ عَلْتِي فَلَعَلَّنِي أَطْفِي بِذَلِكَ خُرْقَةَ الْوَجْدِ

* * *

الفصل الثالث: ما كُتب على القبور

تُوفِّي رَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ فَكُتِبَ عَلَى قَبْرِهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ:

يَا وَاقِفِينَ أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُوا أَنَّ الْحِمَامَ بِكُمْ عَلَيْنَا قَادِمُ
لَوْ تَنْزِلُونَ بِشِغْبِنَا لَعَرَفْتُمْ أَنَّ الْمُفْرَطَ فِي التَّزْوُدِ نَادِمُ
لَا تَسْتَعْرِوْا بِالْحَيَاةِ فَإِنَّكُمْ تَبْنُونَ وَالْمَوْتَ الْمُفَرَّقُ هَادِمُ
سَاوَى الرَّدَى مَا بَيْنَنَا فِي حُفْرَةٍ حَيْثُ الْمُحَدَّمُ وَاحِدٌ وَالْخَادِمُ

* * *

وَمِمَّا وُجِدَ عَلَى قَبْرِ:

إِنَّ الْحَبِيبَ مِنَ الْأَخْبَابِ مُخْتَلَسُ لَا يَمْنَعُ الْمَوْتَ بَوَابٌ وَلَا حَرَسُ
فَكَيْفَ تَفْرَحُ بِالدُّنْيَا وَلَذَّتْهَا يَا مَنْ يُعَدُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ وَالنَّفْسُ
لَا يَزَحِمُ الْمَوْتُ دَا جَاهٍ لِعِزَّتِهِ وَلَا الَّذِي كَانَ مِنْهُ الْعِلْمُ يُقْتَبَسُ
قَدْ كَانَ قَضْرُكَ مَعْمُورًا لَهُ شَرَفُ فَقَبْرُكَ الْيَوْمَ فِي الْأَجْدَاثِ مُنْدَرِسُ

* * *

قَالَ ابْنُ الزُّقَاقِ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ وَأَوْصَى أَنْ تُكْتَبَ عَلَى قَبْرِهِ:

إِخْوَانَنَا وَالْمَوْتُ قَدْ حَالَ دُونَنَا وَلِلْمَوْتِ حُكْمٌ نَافِذٌ فِي الْخَلَائِقِ

سَبَقْتُكُمْ لِلْمَوْتِ وَالْعُمُرُ طِيَهُ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكُلَّ لَا بُدَّ لَأَحْيِي
بَعِثْتُكُمْ أَوْ بِأَضْطِجَاعِي فِي الْتَرَى أَلَمْ نَكُ فِي صَفْوٍ مِنَ الْعَيْشِ رَائِقِ
فَمَنْ مَرَّ بِي فَلْيَمِضْ بِي مُتَرَحِّمًا وَلَا يَكُ مَنَسِيًّا وَفَاءَ الْأَصَادِقِ

* * *

أَمَرَ أَبُو الصَّلَتِ الْإِسْبِيلِيُّ أَنْ تُكْتَبَ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ عَلَى قَبْرِهِ:
سَكَنْتُكَ يَا دَارَ الْفَنَاءِ مُصَدِّقًا بِأَنِّي إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ أَصِيرُ
وَأَعْظَمُ مَا فِي الْأَمْرِ أَنِّي صَائِرُ إِلَى عَادِلٍ فِي الْحُكْمِ لَيْسَ يَجُورُ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ أَلْقَاهُ عِنْدَهَا وَزَادِي قَلِيلٌ وَالذُّنُوبُ كَثِيرُ
فَإِنْ أَكُ مَجْزِيًّا بِذَنْبِي فَإِنِّي بِشَرِّ عِقَابِ الْمُذْنِبِينَ جَدِيرُ
وَإِنْ يَكُ عَفْوٌ ثُمَّ عَنِّي وَرَحْمَةٌ فَتَمَّ نَعِيمٌ زَائِدٌ وَسُرُورُ

* * *

خُفِرَتْ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ عَلَى قَبْرِ ابْنِ بَاقٍ وَهِيَ مِنْ تَضْيِيفِهِ:
تَرَحَّمْ عَلَى قَبْرِ ابْنِ بَاقٍ وَحْيِهِ فَمِنْ حَقِّ مَيِّتِ الْحَيِّ تَسْلِيمُ حَيِّهِ
وَقُلْ أَمَّنَ الرَّحْمَانُ رَوْعَةَ خَائِفٍ لِتَفْرِيطِهِ فِي الْوَاجِبَاتِ وَعَيْهِ
وَإِنِّي بِفَضْلِ اللَّهِ أَوْثَقُ وَاثِقٍ وَحَسْبِي وَإِنْ أَذْنَبْتُ حَسْبُ صَفِيهِ

* * *

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَقْرِيُّ الْحَيَّاطُ عَلَى لِسَانِ مَيِّتٍ:
أَيُّهَا الزَّائِرُونَ بَعْدَ وَفَاتِي جَدْنَا ضَمَّنِي وَلَخْدَا عَمِيقًا
سَتَرُونَ الَّذِي رَأَيْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ بَ عَيْنَانَا وَتَسْلُكُونَ طَرِيقًا

نَظَمَ أَسْعَدُ مُضْطَفَى اللَّقِيمِي قَبْلَ مَوْتِهِ تَارِيخًا لِقَبْرِهِ:
قَبْرٌ بِهِ مَنْ أَوْثَقَتْهُ ذُنُوبُهُ وَعَدَا لِسُوءِ فِعَالِهِ مُتَخَوِّفًا
قَدْ ضَاعَ مِنْهُ عُمْرُهُ بِبَطَالَةٍ وَالْعَيْشُ مِنْهُ بِالتَّكْذِيرِ مَا صَفَا
مَاذَا طَوَى قَبْرَ اللَّقِيمِي أَرْخُوا مُسْتَمْنَحٌ لِلْعَفْوِ أَسْعَدُ مُضْطَفَى

* * *

لَمَّا قُتِلَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزْنَ الْحَمِيرِيُّ دُفِنَ فِي صَنْعَاءَ بِمَقْبَرَةٍ وَوُضِعَ فِي
سَرِيرِهِ عِنْدَ رَأْسِهِ لَوْحٌ قَدْ كُتِبَتْ فِيهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ:
أَنَا أَبْنُ ذِي يَزْنَ مِنْ فَرْعِ ذِي يَمَنِ مَلَكَتُ مِنْ حَدِّ صَنْعَاءَ إِلَى عَدَنِ
جَلَبْتُ مِنْ فَارِسٍ جَيْشًا عَلَى عَجَلٍ فِي الْبَحْرِ أَحْمِلُهُمْ فِيهِ عَلَى السُّفُنِ
حَتَّى غَزَوْتُ بِهِمْ قَوْمًا مُهَاجِرَةً فِي الْبَرِّ جَاسُوا خِلَالَ الْحَيِّ مِنْ يَمَنِ
بِالْخَسْفِ وَالذُّلِّ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ دُوقُوا ثِمَارَ ذَوَاتِ الْحَقْدِ وَالْإِحْنِ
فَأَوْقَعُوا بِهِمْ وَالْدَّهْرُ ذُو دَوْلٍ حَتَّى كَأَنَّ مَعَارَ الْقَوْمِ لَمْ يَكُنْ
حَتَّى إِذَا ظَفِرَتْ نَفْسِي بِمَا طَلَبْتُ وَزَالَ مَا كَانَ فِي قَلْبِي مِنَ الْحَزَنِ
وَنَلْتُ أَكْثَرَ مِمَّا كُنْتُ أَمْلُهُ مِنْ قَتْلِي الْحُبْشَ حَتَّى طَابَ لِي وَطَنِي
جَاءَ الْقَضَاءُ بِمَا لَا يُسْتَطَاعُ لَهُ دَفْعَ وَلَا يُشْتَرَى يَا قَوْمُ بِالْثَمَنِ
مِنْ بَعْدِ مَا جُبْتُ أَخْوَالًا مُصَرَّمَةً قُطِرَ الْبِلَادِ فَلَمْ أَعِجْزْ وَلَمْ أَهْنِ
قَدْ صِرْتُ مُرْتَهَنًا فِي قَاعِ مُظْلِمَةٍ لِلَّهِ دَرِي مِنْ ثَاوٍ وَمُرْتَهَنٍ

* * *

كَانَ عَلَى قَبْرِ يَغْقُوبَ بْنِ لَيْثٍ مَكْتُوبَ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ عَمَلُهَا قَبْلَ مَوْتِهِ،

وأمر أن تُكتب على قبره، وهي هذه:

سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ الْقُبُورِ الدَّوَارِسِ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَجْلِسُوا فِي الْمَجَالِسِ
وَلَمْ يَشْرَبُوا مِنْ بَارِدِ الْمَاءِ شَرْبَةً وَلَمْ يَأْكُلُوا مَا بَيْنَ رَطْبٍ وَيَاسٍ
فَقَدْ جَاءَنِي الْمَوْتُ الْمَهُولُ بِسَكْرَةٍ فَلَمْ تُنَجِّنِي مِنْهُ أُلُوفُ الْقَوَارِسِ
فَيَا زَائِرَ الْقَبْرِ اتَّعِظْ وَاعْتَبِرْ بِنَا وَلَا تَكُ فِي الدُّنْيَا هُدَيْتَ بِآئِسِ

* * *

لما حضرت أبا العتاهية الوفاة أوصى بأن يُكتب على قبره هذه
الآيات الأربعة:

أُذُنٌ حَيٌّ تَسْمَعِي أَسْمَعِي ثُمَّ عِي وَعِي
أَنَا زَهْنٌ بِمَضْجَعِي فَاحْذَرِي مِثْلَ مَضْرَعِي
عِشْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً ثُمَّ وَافَيْتُ مَضْجَعِي
لَيْسَ شَيْءٌ سِوَى الثُّقَى فَخُذِي مِنْهُ أَوْ دَعِي

وعارَضه بعضُ الشعراء في هذه الآيات، وأوصى بأن تُكتب على
قبره أيضًا فكتبت، وهي:

أَصْبَحَ الْقَبْرُ مَضْجَعِي وَمَحَلِّي وَمَوْضِعِي
صَرَغْتَنِي الْحُتُوفُ فِي الدَّ تُزْبِ يَا ذُلَّ مَضْرَعِي
أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِي نَ إِلَيْهِمْ تَطْلُعِي
مُتٌ وَخُذِي فَلَمْ يَمُتْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَعِي

* * *

وُجِدَ على قَبْرِ جاريةٍ إلى جَنْبِ قَبْرِ أَبِي نُواسٍ ثَلَاثَةُ أَبْيَاتٍ ، فَقِيلَ إِنَّهَا
من قول أَبِي نَوَاسٍ ، وهي :

أَقُولُ لِقَبْرِ زُرْثَةَ مُتَلَثِّمًا^(١) سَقَى اللهُ بَرْدَ الْعَفْوِ صَاحِبَةَ الْقَبْرِ
لَقَدْ غَيَّبُوا تَحْتَ الثَّرَى قَمَرَ الدُّجَى وَشَمْسَ الضُّحَى بَيْنَ الصَّفَائِحِ وَالْعَفْرِ^(٢)
عَجِبتُ لِعَيْنٍ بَعْدَهَا مَلَّتِ الْبُكَاءُ وَقَلْبٍ عَلَيْهَا يَرْتَجِي رَاحَةَ الصَّبْرِ

* * *

قال الرِّياشي : وَجَدْتُ تَحْتَ الْفِرَاشِ الَّذِي مَاتَ عَلَيْهِ أَبُو نُوَاسٍ رُقْعَةً
مَكْتُوبَةً فِيهَا هَذِهِ الْأَبْيَاتُ :

يَا رَبِّ إِنَّ عَظُمْتَ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَزْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ
أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا فَإِذَا رَدَدْتَ يَدَيَّ فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا وَجَمِيلُ عَفْوَكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمٌ

* * *

قال الخُشنِي : أَخْبَرَنَا بَعْضُ أَصْحَابِنَا مِمَّنْ كَانَ يَغْشَى مَجْلِسَ
الرِّياشي ، قال : رَأَيْتُ عَلَى قَبْرِ أَبِي هَاشِمِ الْإِيادِيِّ بَوَاسِطَ :

الْمَوْتُ أَخْرَجَنِي مِنْ دَارِ مَمْلَكَتِي وَالْمَوْتُ أَضْرَعَنِي مِنْ بَعْدِ تَشْرِيفِي
لِلَّهِ عَبْدٌ رَأَى قَبْرِي فَأَغْبَرَهُ وَخَافَ مِنْ دَهْرِهِ رَبِّبَ التَّصَارِيفِ

* * *

(١) مُتَلَثِّمًا : أَيُّ بَاغِيًا لثَمِهِ .

(٢) الْعَفْرُ : التَّرَابُ .

قال الأصمعي: أخذ بيدي يحيى بن خالد بن برمك فوقفني على قبره
بالحيرة فإذا عليه مكتوب:

إِنَّ بَنِي الْمُنْذِرِ لَمَّا أَنْقَضُوا بِحَيْثُ شَادَ الْبَيْعَةَ الرَّاهِبُ
تَنْفَحَ بِالْمِسْكِ مَحَارِبُهُمْ وَعَنْبِرٍ يَقْطِبُهُ^(١) قَاطِبُ
وَالْخُبْزِ وَاللَّحْمِ لَهُمْ رَاهِنُ وَقَهْوَةِ رَاوُوقِهَا^(٢) سَاكِبُ
وَالْقُطْنُ وَالكَتَّانُ أَثْوَابُهُمْ لَمْ يَجْلِبِ الصُّوفَ لَهُمْ جَالِبُ
فَأُضْبَحُوا قُوتًا لِدُودِ الثَّرَى وَالذَّهْرُ لَا يَبْقَى لَهُ صَاحِبُ
كَأَنَّمَا حَيَاتُهُمْ لُغْبَةٌ سَرَى إِلَى بَيْنِ^(٣) بِهَا رَاكِبُ

* * *

قال الشَّيْبَانِيُّ: وَجَدَ مَكْتُوبًا عَلَى بَعْضِ الْقُبُورِ:

مَلَّ الْأَجْبَةُ زُورْتِي فَجُفِيتُ وَسَكَنْتُ فِي دَارِ الْبَلَى فَنُسِيتُ
الْحَيُّ يَكْذِبُ لَا صَدِيقَ لِمَيِّتٍ لَوْ كَانَ يَصْدُقُ مَاتَ حِينَ يَمُوتُ
يَا مُؤْنِسَا سَكَنَ الثَّرَى وَبَقِيتُ لَوْ كُنْتُ أَصْدُقُ إِذْ بَلِيتَ بَلِيتُ
أَوْ كَانَ يَغْمَى لِلْبُكَاءِ مُفْجِعُ مِنْ طُولِ مَا أَبْكِي عَلَيْكَ عَمِيتُ

* * *

(١) يقطبه: يمزجه.

(٢) الراووق: الإناء الذي يُصَفَّى بِهِ الشَّرَابُ.

(٣) بين: موضع في الحيرة.

الباب السادس

في الرثاء

الفصل الأول: في رثاء الذات

قال مالك بن الرّيب يَرثِي نَفْسَهُ وَيَصِفُ قَبْرَهُ، وكان خَرَجَ مع سَعِيدِ
ابن عثمان بن عَفَّانَ لما وَلِيَ خُرَّاسانَ، فلما كان ببعض الطَّرِيقِ أرادَ أنْ
يَلْبَسَ حُفَّهُ، فإذا بأَفْعَى في داخلها فِلْسَعَتَهُ، فلما أَحَسَّ الموتَ اسْتَلْقَى على
قَفَّاهُ، ثم أنشأ يقول:

دَعَانِي الهَوَى مِنْ أَهْلِ أَوْدٍ وَصُحْبَتِي بذي الطَّبَسِينَ فَالْتَفْتُ وَرَائِي^(١)
فَمَا رَاعَنِي إِلَّا سَوَابِقُ عَبْرَةٍ تَقْنَعْتُ مِنْهَا أَنْ أَلَامَ رِدَائِي^(٢)
أَلَمْ تَرْنِي بِغَتِ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَفَّانَ غَازِيَا
فَلَلَهُ دَرِّي حِينَ أَتْرَكَ طَائِعًا بَنِيَّ بِأَعْلَى الرِّقْمَتَيْنِ وَمَالِيَا
وَدَرَ كَبِيرِيَّ اللَّذِينَ كِلَاهُمَا عَلَيَّ شَفِيقٌ نَاصِحٌ لَوْ نَهَانِيَا
وَدَرُ الطُّبَّاءِ السَّانِحَاتِ عَشِيَّةً يُخْبِرُنَ أَنِّي هَالِكٌ مِنْ أَمَامِيَا
تَقُولُ أَبْنَتِي لَمَّا رَأَتْ وَشْكَ رِخْلَتِي سِفَارُكَ هَذَا تَارِكِي لَا أَبَا لِيَا
أَلَا لَيْتَ شِغْرِي هَلْ بَكَتْ أُمُّ مَالِكٍ كَمَا كُنْتُ لَوْ عَالُوا نَعِيكَ بَاكِيًا^(٣)
عَلَى جَدَثٍ قَدْ جَرَّتِ الرِّيحُ فَوْقَهُ تُرَابًا كَسَحَقِ الْمَرْبَانِي هَابِيًا^(٤)
فِيَا صَاحِبِي رَخْلِي دَنَا الْمَوْتَ فَاحْفَرَا بِرَابِيَةِ إِنْثِي مُقِيمٌ لِيَالِيَا

(١) أود وذو الطبسين: موضعان. (٢) أي تقنعت ردائي لكيلا يروني الناس باكيًا فيلوموني.

(٣) عالوا: هنا بمعنى نشروا وأعلنوا. (٤) المربناني: كساء من خز. هابيًا: متشرا.

وخطا بأطراف الأسيئة مضجعي
ولا تحسداني بآرك الله فيكما
خذاني فجزاني بيزدي إليكما
تفقدت من يكي علي فلم أجذ
وأذهم غريب^(١) يجر لجامه
وبالزمل لو يعلمن علمي نسوة
عجوزي وأختاي اللتان أصيبتا
لعمري لئن غالت خراسان هامتي
تحمل أصحابي عشاء وغادروا
يقولون لا تبعد وهم يذفنونني
وردا على عيني فضل ردائي
من الأرض ذات العرض أن توسعاليا
وقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
سوى السيف والرُمح الرذيني باكيا
إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا
بكين وفدين الطبيب المداويا
بموتي وبنت لي تهيج البواكيا
لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
أخا ثقة في عرصة الدار ثاويا
وأين مكان البعد إلا مكانيا

* * *

وقال رجل من بني تغلب يقال له أفنون، وهو لقبه، واسمه صريم بن
مغش بن ذهل بن تيم، ولقي كاهنا في الجاهلية، فقال له: إنك تموت
بمكان يقال له إلهة. فمكث ما شاء الله، ثم سافر في ركب من قومه إلى
الشام فأتوها، ثم انصرفوا فضلوا الطريق، فقالوا لرجل: كيف تأخذ؟ فقال:
سيروا حتى إذا كنتم بمكان كذا وكذا ظهر لكم الطريق ورأيتم إلهة -
والإلهة قارة بالسماء - فلما أتوها نزل أصحابه وأبى أن ينزل، فبينما ناقته
ترتعي وهو راكبها إذ أخذت بمشفر ناقته حية، فاحتكت الناقة بمشفرها
فلدغت ساقه؛ فقال لأخيه وكان معه، وأسمه معاوية: احفر لي فإني ميت،
ثم تغنى قبل أن يموت يكي نفسه:

(١) غريب: شديد السواد.

فلست على شيء فُروحن معاويا ولا المُشفقات إذ تبعن الحوازيا^(١)
 ولا خَيْرَ فيما يكذب المرء نفسه وتَقْواله للشيء يا ليت ذا ليا
 وإن أعجبتك الدهر حال من امرئ فدعه وواكل حاله واللياليا
 يرُحن عليه أو يُعَيِّزن ما به وإن لم يكن في جوفه العيش وانيا
 فطأ مُعرضاً إن الحُتوف كثيرة وإنك لا تبقي بنفسك باقيا^(٢)
 لعمرك ما يدري أمرؤ كيف يتقي إذا هو لم يجعل له الله واقيا
 كفى حزناً أن يزحل الركب غُدوة وأنزل في أعلى إلهة ثاويا
 ويروى أنه مات، فدَفَنُوهُ بها.

* * *

وقال هُذبة العُدري لما أيقن بالموت:
 ألا عللاني قبل نوح النوائح وقبل أطلاع النفس بين الجوائح
 وقبل غدٍ يا لهف نفسي على غدٍ إذا راح أصحابي ولست برائح
 إذا راح أصحابي بفيض دموعهم وغودرت في لحد علي صفائحي
 يقولون هل أضلختكم لأخيكُم وما الرمس في الأرض القواء بصالح

* * *

وقال محمد بن بشير:
 ويل لمن لم يرحم الله ومن تكون النار مثواه

(١) فلست على شيء أي لست أقدر على شيء. فروحن: اتركني. والمشفقات: ذوات الشفقة. والحوزي: الكواهن. أي لا أقدر أن أدفع عن نفسي شيئاً كتب علي، وكذا النساء المشفقات إذ تبعن الكواهن يسألنهن لا يغنين عمن أشفقن عليه شيئاً.

(٢) طأ: فعل الأمر من وطىء بمعنى داس. الحتوف: جمع الحتف، وهو الموت.

وَالْوَيْلَ لِي مِنْ كُلِّ يَوْمٍ أَتَى
كَأَنَّهُ قَدْ قِيلَ فِي مَجْلَسٍ قَدْ كُنْتُ آتِيهِ وَأَغْشَاهُ:
صَارَ الْبَشِيرِيُّ إِلَى رَبِّهِ يَرْحَمُنَا اللَّهُ وَإِيَّاهُ

* * *

الفصل الثاني: في رثاء الولد

قال ابن عبد ربه في رثاء ولده:

بَلِيَّتْ عِظَامُكَ وَالْأَسَى يَتَجَدَّدُ وَالصَّبْرُ يَنْقَدُ وَالْبُكَاءُ لَا يَنْقَدُ
يَا غَائِبًا لَا يُرْتَجَى لِإِيَابِهِ وَلِقَائِهِ دُونَ الْقِيَامَةِ مَوْعَدُ
مَا كَانَ أَحْسَنَ مُلْحَدًا ضُمْنَتْهُ لَوْ كَانَ ضَمَّ أَبَاكَ ذَاكَ الْمُلْحَدُ
بِالْيَأْسِ أَسْلُو عَنْكَ لَا بِتَجَلْدِي هِيَهَاتَ أَيْنَ مِنَ الْحَزَنِ تَجَلَّدُ

* * *

وقال فيه أيضًا:

وَكَبِدًا قَدْ قُطِعَتْ كَبِدِي وَحَرَّقَتْهَا لَوَاعِجُ الْكَمَدِ
مَا مَاتَ حَيٌّ لَمَيِّتٍ أَسْفَا أَعْذَرَ مِنَ وَالِدٍ عَلَى وَلَدٍ
يَا رَحْمَةً اللَّهِ جَاوِرِي جَدَّتَا دَفَنْتُ فِيهِ حُشَّاشَتِي بِيَدِي
وَنَوْرِي ظُلْمَةَ الْقُبُورِ عَلَى مَنْ لَمْ يَصِلْ ظُلْمُهُ إِلَى أَحَدٍ
مَنْ كَانَ خَلُوعًا مِنْ كُلِّ بَائِقَةٍ وَطَيِّبَ الرُّوحِ طَاهِرَ الْجَسَدِ
يَا مَوْتَ، يَحْيَى لَقَدْ ذَهَبَتْ بِهِ لَيْسَ بِزُمَيْلَةٍ^(١) وَلَا نَكِدِ
يَا مَوْتَهُ لَوْ أَقْلَتْ عَثْرَتَهُ يَا يَوْمَهُ لَوْ تَرَكَتَهُ لَغَدِ

(١) الزميل: الجبان الضعيف.

يا موت لو لم تكن تُعاجله
أو كنت راخيت في العنان له
أي حُسام سَلبت رَوْقَهُ
وأي ساقٍ قَطعت من قَدَمٍ
يا قَمراً أَجحف الحُسوف به
أي حَشا لم تَذُب له أَسفاً
لا صَبِر لي بَعْدَه ولا جَلَدٌ
لو لم أُمِت عند مَوْتِه كَمَدًا
يا لَوَعَةً ما يزال لاعِجُها
وقال فيه أيضًا:

لا بَيِّت يُسكن إلا فارَق السَّكَناءُ
لَهْفِي على مَيِّت مات السُّرور به
واها عليك أبا بَكْرٍ مُرَدِّدَةٌ
إذا ذَكَرتُك يومًا قُلْتُ وا حَزَنًا
يا سَيِّدي ومَراح الرُّوح في جَسَدِي
حتى يَعود بنا في قَعر مُظْلَمَةٍ
يا أَطيبَ الناس رُوحًا ضَمَّهُ بَدَنٌ
لو كُنْتُ أُعْطِيَ به الدُّنيا مُعَاوَضَةً

(١) بيضة البلد: السيد.

(٢) الأمد: الغاية.

(٣) السواء: يريد ليلة أربع عشرة، أي أنه لم يكتمل.

وقال أبو ذؤيب الهذلي، وكان له أولادٌ سبعة فماتوا كلهم إلا طفلاً، فقال يرثيهم:

أَمِنَ المَنونَ وَرَيبَهُ نَتَوَجَّعُ والدَّهرَ ليسَ بِمُعْتِيبٍ من يَجْزَعُ
قالت أُمَيمةٌ ما لِحِجَمِكَ شاحِبًا منذ ابْتَدَلْتُ ومثْلُ مالِكَ يَنْفَعُ
أَم ما لِحِجَمِكَ لا يُلائِمُ مَضْجَعًا إلا أَقْصَى عَلَيْكَ ذاكَ المَضْجَعُ
فأَجَبْتُها أَن ما لِحِجَمِي إِنَّه أَوْدَى بَنِي من البِلادِ فودَّعوا
أَوْدَى بَنِي وَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً بعد الرُّقادِ وَعَبْرَةً ما تُقْلِعُ
سَبَقُوا هَوًى وَأَعَنُّوا لَهْوَهم فَتُخَرِّمُوا ولكلِّ جَنْبٍ مَضْرَعُ^(١)
فَبَقِيَتْ بَعْدَهُم بَعِيشٌ ناصِبٍ وإِحالَ أَنِّي لاحِقٌ مُسْتَتِيعُ^(٢)
ولقد حَرَضْتُ بأن أَدافعَ عَنْهم وإذا المَنِيَّةُ أَقبلتْ لا تُدْفَعُ
وإذا المَنِيَّةُ أَنشَبَتْ أَظْفارَها أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تُنْفَعُ^(٣)
فَالعَيْنُ بَعْدَهُم كَأَنَّ حِداقَها سُمِلَتْ بِشَوْكٍ فَهِيَ عَوْرٌ تَذْمَعُ^(٤)
حتى كَأَنِّي لِلحوادثِ مَرَوَةٌ بِصَفا المَشْرِقِ كلَّ يومٍ تُقْرَعُ^(٥)
وَتَجْلُدِي لِلشامِتِينَ أَرِيهم أَنِّي لِرَيبِ الدَّهرِ لا أَتَضَغَّضُعُ

وقال في الطفل الذي بقي له:

والنَّفْسُ رَاجِبَةٌ إذا رَعَّيَتْها وإذا تُرِدُّ إلى قَليلٍ تَقْنَعُ
وقال الأصمعي: هذا أَبَدَعُ بَيْتٍ قالته العرب.

(١) هَوًى: هواي، وهذا لغة. أَعَنُّوا: تبع بعضهم بعضًا. تُخَرِّمُوا: أُخْذُوا واحدًا واحدًا.

(٢) ناصب: فيه نصب، أي تعب.

(٣) التميمية: ما يعلق على الصدر لدفع الأذى.

(٤) حداقها: حدقتها.

(٥) المروة: الصخرة. وصفا المشرق: اسم موضع. يقول: كأنما أنا مروة في السوق ترقعها أقدام الناس.

وقال أعرابي يَرثي بَنِيهِ:

أُسْكَا نَ بَطْنَ الْأَرْضِ لَوْ يُقْبَلُ الْفِدَا
فِيَا لَيْتَ مَنْ فِيهَا عَلَيْهَا وَلَيْتَ مَنْ
وَقَاسَمَنِي دَهْرِي بَنِي بِشَطْرِهِ
فَصَارُوا دُيُونًا لِلْمَنَايَا وَلَمْ يَكُنْ
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفِ الْمَوْتَ غَيْرَهُمْ
وَقَدْ كُنْتُ حَيًّا الْخَوْفِ قَبْلَ وَفَاتِهِمْ
فَلِلَّهِ مَا أَعْطَى وَلِلَّهِ مَا حَوَى

قَدَيْنَا وَأَعْطَيْنَا بِكُمْ سَاكِنِي الظَّهْرِ
عَلَيْهَا تَوَى فِيهَا مُقِيمًا إِلَى الْحَشْرِ
فَلَمَّا تَقَصَّى شَطْرُهُ مَا لَ فِي شَطْرِي^(١)
عَلَيْهِمْ لَهَا دَيْنٌ قَضَوَهُ عَلَى عُسْرِ
فَتُكَلُّ عَلَى تُكَلِّ وَقَبْرٌ إِلَى قَبْرِ
فَلَمَّا تَوَفَّوْا مَاتَ خَوْفِي مِنَ الدَّهْرِ
وَلَيْسَ لِأَيَّامِ الرِّزْيَةِ كَالصَّبْرِ

* * *

وقيل لأعرابية مات ابنها: ما أحسنَ عزاءك؟ قالت: إِنَّ فَقْدِي إِيَّاهُ
أَمَّنِّي كُلَّ فَقْدٍ سِوَاهُ، وَإِنْ مُصِيبَتِي بِهِ هَوْنَتْ عَلَيَّ الْمَصَائِبُ بَعْدَهُ. ثُمَّ
أَنْشَأَتْ تَقُولُ:

مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلَيْمْتُ فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَاذِرُ
كُنْتُ السَّوَادَ لِنَاطِرِي فَبَكَى عَلَيْكَ النَّاطِرُ
لَيْتَ الْمَنَازِلَ وَالْدِّيَا رَ حَفَائِرُ وَمَقَابِرُ
إِنِّي وَغَيْرِي لَا مَحَا لَةَ حَيْثُ صِرْتَ لَصَائِرُ

أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ هَانئٍ مَعْنَى هَذَا الْبَيْتِ الْأَوَّلِ، فَقَالَ فِي الْأَمِينِ:

طَوَى الْمَوْتَ مَا بَنَيْتُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ
وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَخَذَرُ الْمَوْتَ وَحَدَهُ
لَشَنْ عَمَرْتُ دُورًا بِمَنْ لَا أَحَبَّهُ
لَقَدْ عَمَرْتُ مَمَّنْ أَحَبَّ الْمَقَابِرُ

(١) المعنى أَنَّهُ أَهْلَكَ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ أَوْلَادِي.

وقال عبد الله بن الأَهمم يَزْثِي أَبْنَا لَهُ :

دَعَوْتُكَ يَا بُنَيَّ فَلَمْ تَجِبْنِي فَرُدَّتْ دَعْوَتِي يَا سَا عَلِيَّ
بِمَوْتِكَ مَاتَتِ اللَّذَاتُ مِنِّي وَكَانَتْ حَيَّةً مَا دُمْتَ حَيًّا
فِيمَا أَسْفَا عَلَيْكَ وَطُولَ شَوْقِي إِلَيْكَ لَوْ أَنَّ ذَلِكَ رَدَّ شَيْئًا

* * *

وَأَصِيبُ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ بَابِنَ لَهُ ، فَلَمَّا دَفَنَهُ وَقَفَ عَلَى قَبْرِهِ وَقَالَ :

كَفَى حَزْنًا بَدَفْنَكَ ثُمَّ أَنِّي نَفَضْتُ تُرَابَ قَبْرِكَ مِنْ يَدَيَّ
وَكُنْتُ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتُ فَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا

* * *

وَمَاتَ ابْنُ لَأَعْرَابِيٍّ فَاشْتَدَّ حُزْنُهُ عَلَيْهِ ، وَكَانَ الْأَعْرَابِيُّ يُكْنَى بِهِ ، فَقِيلَ

لَهُ : لَوْ صَبَرْتَ لَكَانَ أَعْظَمَ لَثَوَابِكَ ؛ فَقَالَ :

بِأَبِي وَأُمِّي مِنْ عَبَاتُ حَنُوطِهِ بِيَدِي وَفَارَقْنِي بِمَاءِ شَبَابِهِ
كَيْفَ السُّلُوكُ وَكَيْفَ أَنْسَى ذِكْرَهُ وَإِذَا دُعِيتُ فَإِنَّمَا أَدْعَى بِهِ

* * *

خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا إِلَى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ^(١) ، فَإِذَا

أَعْرَابِيٍّ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : يَا أَعْرَابِيٍّ ، مَا أَذْخَلَكَ دَارَ الْحَقِّ ؟ قَالَ : وَدِيعَةٌ لِي
هَاهُنَا مِنْذُ ثَلَاثِ سِنِينَ ؛ قَالَ : وَمَا وَدِيعَتُكَ ؟ قَالَ : ابْنٌ لِي حِينَ تَرَعَّرَ فَقَدْتُهُ
فَأَنَا أَنْدُبُهُ ؛ قَالَ عُمَرُ : أَسْمِعْنِي مَا قُلْتَ فِيهِ ؛ فَقَالَ :

يَا غَائِبًا مَا يُوُوبُ مِنْ سَفَرِهِ عَاجَلَهُ مَوْتُهُ عَلَى صِغَرِهِ
يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ كُنْتُ لِي سَكَنًا فِي طُولِ لَيْلِي نَعَمْ وَفِي قِصَرِهِ

(١) بَقِيعُ الْغَرْقَدِ : مَقْبَرَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ .

شَرِبْتَ كَأْسًا أَبُوكَ شَارِبُهَا لَا بُدَّ يَوْمًا لَهُ عَلَى كِبَرِهِ
أَشْرِبُهَا وَالْأَنَامُ كُلُّهُمْ مَنْ كَانَ فِي بَدْوِهِ وَفِي حَضَرِهِ
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ الْمَوْتُ فِي حُكْمِهِ وَفِي قَدَرِهِ
قَدْ قَسَمَ الْمَوْتُ فِي الْأَنَامِ فَمَا يَقْدِرُ خَلْقٌ يَزِيدُ فِي عُمُرِهِ
قال عمر: صدقت يا أعرابي، غير أن الله خير لك منه.

* * *

وقالت أعرابية تَتَدُبُّ أَبْنَا لَهَا:
أَبْنِي غَيْبِكَ الْمَحَلُّ الْمُلْحَدُ إِمَّا بَعُدْتَ فَأَيْنَ مِنْ لَا يَبْعُدُ
أَنْتَ الَّذِي فِي كُلِّ مُمَسَى لَيْلَةٍ تَبْلَى وَحُزْنُكَ فِي الْحَشَى يَتَجَدَّدُ
وقالت فيه:

لئن كنتَ لَهُوَ لِلْعُيُونِ وَقُوَّةٌ لَقَدْ صِرْتَ سُفْمًا لِلْقُلُوبِ الصَّحَائِحِ
وَهُوَ حُزْنِي أَنَّ يَوْمَكَ مُذْرِكِي وَأُنِّي غَدًا مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الضَّرَائِحِ

* * *

وقال أبو الخطار يَزِثِي ابْنَهُ الْخَطَارُ:
أَلَا خَبَّرَانِي بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا مَتَى الْعَهْدُ بِالْخَطَارِ يَا فَتَيَانِ
فَتَى لَا يَرَى نَوْمَ الْعِشَاءِ غَنِيمَةً وَلَا يَنْثَنِي مِنْ صَوْلَةِ الْحَدَثَانِ

* * *

وقال أبو الشَّعْبِ يَزِثِي ابْنَهُ شَعْبًا:
قَدْ كَانَ شَعْبٌ لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَمَّرَهُ عِزًّا تَزَادَ بِهِ فِي عِزِّهَا مُضَرُّ
لَيْتَ الْجِبَالَ تَدَاعَتْ قَبْلَ مَضَرِّعِهِ دَكًّا فَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَحْجَارِهَا حَجَرٌ

فَارَقْتُ شَغَبًا وَقَدْ قُوسْتُ مِنْ كِبَرٍ بِئْسَ الْخَلِيطَانُ طُولُ الْحُزْنِ وَالْكِبَرُ

* * *

قال الأصمعي عن رجل من الأعراب: كُنَّا عَشْرَةَ إِخْوَةٍ، وَكَانَ لَنَا أَخٌ يُقَالُ لَهُ حَسَنٌ، فَتُعَيَّ إِلَى أَبِينَا، فَبَقِيَ سَتَتَيْنِ يَبْكِي عَلَيْهِ حَتَّى كُفَّ بَصَرُهُ، وَقَالَ فِيهِ:

أَفْلَحْتُ إِنْ كَانَ لَمْ يَمُتْ حَسَنُ وَكُفَّ عَنِّي الْبُكَاءُ وَالْحَزَنُ
بَلْ أَكْذَبَ اللَّهُ مَنْ نَعَى حَسَنًا لَيْسَ لَتَكْذِيبِ قَوْلِهِ ثَمَنُ
أَجُولُ فِي الدَّارِ لَا أَرَاكَ وَفِي الدَّارِ أَنْاسُ جِوَارِهِمْ غَبَنُ
بُدِّلْتُهُمْ مِنْكَ لَيْتَ أَنَّهُمْ كَانُوا وَبَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مُدُنُ
قَدْ عَلِمُوا عِنْدَمَا أَنْافَرَهُمْ مَا فِي قَنَاتِي صَدْعٌ وَلَا أُبْنُ
قَدْ جَرَّبُونِي فَمَا أَلَاؤُهُمْ مَا زَالَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ إِحْنُ
قَدْ بُرِيَ الْجِسْمُ مَذْنُوعٌ لَنَا كَمَا بَرَى فَرْعٌ نَبْعَةً سَقْنُ^(١)
فَإِنْ نَعِشْ فَالْمُنَى حَيَاتُكَ وَالْوَاسَنُ حُلْدُ وَأَنْتَ الْحَدِيثُ وَالْوَسَنُ
إِنْ تَخِي نَخِي بِخَيْرِ عَيْشٍ وَإِنْ تَمْضِ فِتْلِكَ السَّبِيلُ وَالسَّنَنُ
بَرِيدُكَ الْحَمْدُ وَالسَّلَامُ مَعًا فَكُلَّ حَيٍّ بِالمَوْتِ مُرْتَهَنُ
يَا وَيْحَ نَفْسِي أَنْ كُنْتُ فِي جَدَثٍ دُونَكَ فِيهِ التَّرَابُ وَالْكَفَنُ
عَلَيَّ اللَّهُ إِنْ لَقِيتُكَ مِنْ قَبْلِ المَمَاتِ الصَّيَامُ وَالْبُدُنُ
أَسْوَقُهَا حَافِيًا مُجَلَّلَةً أَذْمًا هِجَانًا قَدْ كَظَّهَا السَّمَنُ
فَلَا تُبَالِي إِذَا بَقِيتَ لَنَا مَنْ مَاتَ أَوْ مَنْ أَوْدَى بِهِ الزَّمَنُ

(١) السفن: ما ينحت به الشيء كالقدوم ونحوه.

كُنْتُ خَلِيلِي وَكُنْتُ خَالِصَتِي لِكُلِّ حَيٍّ مِنْ أَهْلِهِ سَكَنُ
لَا خَيْرَ لِي فِي الْحَيَاةِ بَعْدَكَ إِذْ أَصْبَحْتَ تَحْتَ التُّرَابِ يَا حَسَنُ

* * *

وَقَالَ أَعْرَابِي يَرِثِي ابْنَهُ :
وَلَمَّا دَعَوْتُ الصَّبْرَ بَعْدَكَ وَالْأَسَى أَجَابَ الْأَسَى طَوَّعًا وَلَمْ يُجِبِ الصَّبْرُ
فَإِنْ يَنْقَطِعَ مِنْكَ الرَّجَاءُ فَإِنَّهُ سَيَبْقَى عَلَيْكَ الْحُزْنَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ

* * *

وَقَالَ أَعْرَابِي يَرِثِي أَبْنَهُ :
بُنَيَّ لَنْ ضَمَنْتُ جُفُونََ بِمَائِهَا لَقَدْ قَرِحْتَ مِنِّي عَلَيْكَ جُفُونََ
دَفَنْتُ بِكَفِّي بَعْضَ نَفْسِي فَأَصْبَحْتُ وَلِلنَفْسِ مِنْهَا دَافِنٌ وَدَافِنٌ

* * *

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثَعْلَبَةَ يَرِثِي وَلَدًا لَهُ :
أَخْضَبَ رَأْسِي أَمْ أَطْيَبُ مَفْرِقِي وَرَأْسُكَ مَرْمُوسٌ وَأَنْتَ سَلِيبُ
نَسِيكَ مِنْ أَمْسَى يُنَاجِيكَ طَرْفُهُ وَلَيْسَ لِمَنْ تَحْتَ التُّرَابِ نَسِيبُ
غَرِيبٌ وَأَطْرَافُ الْبُيُوتِ تُكِنُّهُ أَلَا كُلَّ مَنْ تَحْتَ التُّرَابِ غَرِيبُ

* * *

قَالَ الْعُثَيْبِيُّ - مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ - يَرِثِي أَبْنَاهُ :
أَضْحَتْ بِخَدِّي لِلدَّمُوعِ رُسُومٌ أَسَفًا عَلَيْكَ وَفِي الْفَوَادِ كُلُّومُ
وَالصَّبْرُ يُخَمِدُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومُ

* * *

وقالت أعرابيةٌ تَرثي ولدها:

يا قَزَحَةَ الْقَلْبِ والأَخْشَاءِ والكَيْدِ يا لَيْتَ أُمِّكَ لِمَ تَحْبِلَ وَلِمَ تَلِدِ
لَمَّا رَأَيْتُكَ قَدْ أُذْرِجْتَ فِي كَفْنٍ مُطَيَّبًا لِلْمَنَايَا آخِرَ الْأَبَدِ
أَيَقْنَتْ بِعَدِّكَ أَنِّي غَيْرُ بَاقِيَةٍ وَكَيْفَ يَبْقَى ذِرَاعُ زَالٍ عَنْ عَضْدِ

* * *

الفصل الثالث: في رثاء الأخ

قال الرياشي: صَلَّى مُتَّم بن نُؤيرة الصُّبح مع أبي بكر الصَّدِّيق رضي الله تعالى عنه، ثم أنشد:

نِعمَ القَتِيلُ - إذا الرِّياحُ تَنَاحَتْ بين البُيوت - قَتَلْتُ يا ابنَ الأَزورِ^(١)
أَدَعَوْتَهُ باللهِ ثُمَّ قَتَلْتَهُ لَوْ هُوَ دَعَاكَ بِذِمَّةٍ لَمْ يَغْدِرِ
لَا يُضْمِرُ الفَحْشاءَ تحتِ رِداءه حُلُو شَمائله عَفِيفُ المِئزِرِ
قال: ثُمَّ بكى حتى سالت عَيْنُه العُوراء. قال أبو بكر: مَا دَعَوْتَهُ وَلَا قَتَلْتَهُ. وقال مُتَّم:

وَمُسْتَضْحِكٍ مِنِّي أَدَعَى كَمُصِيبَتِي وليس أخو الشَّجْو الحَزِين بضاحِكِ
يَقُولُ أَتَبْكِي مِن قُبُورِ رَأَيْتِهَا لِقَبْرِ بِأَطْرَافِ المَلَا فَالدَّكَاكِ^(٢)
فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسَى فَدَغْنِي فَهْذِي كُلُّهَا قَبْرُ مالِكِ

* * *

وقال مُتَّم يَرثِي أخاه مالِكا، وهي التي تُسمَّى أمَّ المَراثِي:
لَعَمْرِي وما دَهْرِي بَتَّابِين هَالِكِ ولا جَزَعٍ مِمَّا أَلَمَ فَأَوْجَعَا^(٣)

(١) ابن الأزور: ضرار بن الأزور، وهو الذي قتل مالك بن نويرة.

(٢) الدكادك: جمع دكدك. وهو من الرمل ما تكبس واستوى.

(٣) ما دهري: أي ما همي وغايبي. ولا جزع، عطف على قوله «بتابين». يقول: ليس همي بمرثية ميت وإظهار الجزع عليه ولكنني أمدح أخي وأظهر فضله. أو لعله يريد أن أخاه قد عاجله الموت وأن هذا الوقت لم يكن لورثائه.

لقد غَيَّبَ الْمِنْهَالُ تَحْتَ رِدَائِهِ فَتَى غَيْرِ مِبْطَانِ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعًا^(١)
 وَلَا بَرَمًا تُهْدِي النِّسَاءَ لِعَرْسِهِ إِذَا الْقَشْعُ مِنْ بَرْدِ الشُّتَاءِ تَقَفَّقَعًا^(٢)
 تَرَاهُ كَتَضَلِّ السَّيْفِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى إِذَا لَمْ تَجِدْ عِنْدَ امْرِئِ السَّوْءِ مَطْمَعًا
 فَعَيْنِي هَلَّا تَبْكِيَانِ لِمَالِكٍ إِذَا هَزَّتِ الرِّيحُ الْكَئِيفَ الْمُرْفَعًا^(٣)
 وَأَزْمَلَةً تَمْشِي بِأَشْعَثِ مُحْتَلٍ كَفَرَّخِ الْحُبَارَى رِيشُهُ قَدْ تَمَزَّعًا^(٤)
 وَمَا كَانَ وَقَافًا إِذَا الْحَيْلُ أَخْجَمَتْ وَلَا طَالِبًا مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ مَفْزَعًا^(٥)
 وَلَا بِكَهَامٍ سَيِّفُهُ عَنِّ عِدْوَهُ إِذَا هُوَ لَا قَى حَاسِرًا أَوْ مُقَنَّعًا^(٦)
 أَبَى الصَّبْرَ آيَاتٍ أَرَاهَا وَأَتْنِي أَرَى كُلَّ حَبَلٍ بَعْدَ حَبْلِكَ أَقْطَعًا^(٧)
 وَأَتْنِي مَتَى مَا أَدْعُ بِأَسْمِكَ لَمْ تُجِبْ وَكُنْتَ حَرِيًّا أَنْ تُجِيبَ وَتَسْمَعًا
 تَحِيَّتُهُ مِنِّي وَإِنْ كَانَ نَائِيًا وَأَمْسَى ثُرَابًا فَوْقَهُ الْأَرْضُ بَلَقَعًا
 فَإِنْ تَكُنِ الْآثَامَ فَرَّقْنِ بَيْنَنَا فَقَدْ بَانَ مَحْمُودًا أَخِي جِينَ وَدَعَا
 فَعِشْنَا بِخَيْرٍ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَنَا أَصَابَ الْمَنَايَا رَهْطَ كِسْرَى وَتُبَّعَا
 وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيمَةً حَقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَّصِدَّعًا^(٨)

(١) المنهال: رجل من بني يربوع ألقى ثوبه على مالك أخي متمم يستره به. والمبطان: الضخم البطن. يريد أنه لا يتعجل العشاء انتظارا في العشيات للضيغان، وهي وقت مجيئهم. والأروع: الذي يعجبك بحسنه وجماله.

(٢) البرم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر، وهو ذم. والقشع: البيت من آدم أو جلد. والتقفقع: صوت الجلد إذا يبس.

(٣) الكنيف: حظيرة من شجر تجعل للإبل تقيها البرد. والمرفع: المرفوع.

(٤) يريد «بالأشعث»: ولدها. والمحتل: السئء الغذاء. وتمزج: تفرق.

(٥) أي ليس الجبان الذي يدفعه قومه وينحونه لأنه ليس من رجال الحرب.

(٦) الكهام: الكليل. والمقنع: الذي عليه بيضة ومغفر. والحاسر: ضده.

(٧) يقول: أبى الصبر معالم وآثارا أراها من آثارك فأذكرك إذا رأيتها فلا أقدر على الصبر. وبعد حبلك أقطع: أي قد ذهب الوفاء.

(٨) ندمانا جذيمة: هما مالك وعقيل، نادما جذيمة الأبرش، وكانا ردا عليه ابن أخته عمرو بن عدي فسألها حاجتهما فسألاه منادمته، فكانا نديمي ثم قتلها.

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا
فَمَا شَارِفٌ حَنَّتْ حَنِينًا وَرَجَعَتْ
وَلَا وَجَدُ أَظَارِ ثَلَاثِ رَوَائِمِ
بِأَوْجَدَ مَتِي يَوْمَ قَامَ بِمَالِكِ
سَقَى اللَّهُ أَرْضًا حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكِ
ذَهَابُ الْغَوَادِي الْمُدْجَنَاتِ فَأَمْرَعَا^(٣)
قِيلَ لِعَمْرُو بْنِ بَخْرِ الْجَاظِ: إِنَّ الْأَصْمَعِيَّ كَانَ يُسَمِّي هَذَا الشَّعْرَ أُمَّ
الْمَرَاثِي؛ فَقَالَ: لَمْ يَسْمَعْ الْأَصْمَعِيُّ:

أَيُّ الْقُلُوبِ عَلَيْكُمْ لَيْسَ يَنْصَدُعُ وَأَيُّ نَوْمٍ عَلَيْكُمْ لَيْسَ يَمْتَنِعُ

* * *

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: لَمْ يَتَدَيَّ أَحَدٌ مَرَثِيَّةً بِأَحْسَنَ مِنْ أَبْتَدَاءِ أَوْسَ بْنِ
حَجَرٍ:
أَيُّهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزْعًا إِنَّ الَّذِي تَحْذِرِينَ قَدْ وَقَعَا
وَبَعْدَهَا قَوْلُ زُمَيْلٍ^(٤):

أَجَارَتْنَا مَنْ يَجْتَمِعُ يَتَفَرَّقُ وَمَنْ يَكُ زَهْنًا لِلْحَوَادِثِ يَغْلَقُ

* * *

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ صَاحِبُ الْمَغَازِي: لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّفْرَاءُ -

(١) الشَّارِفُ: الْمُسْتَنَدُ مِنَ الْإِبِلِ، وَخَصَّهَا لِأَنَّهَا أَرْقَ مِنَ الْفَتِيَّةِ لِبَعْدِهَا عَنِ الْوَلَدِ. وَالْبَرْكُ:
الْأَلْفُ مِنَ الْجَمَالِ.

(٢) الْأَظَارُ: النَّوْقُ يَعْطِفُنَ عَلَى حِوَارٍ وَاحِدٍ. وَالرَّوَائِمُ: النَّوْقُ تَعَطَّفَ عَلَى وَلَدِهَا. وَالْحَوَارِ:
وَلَدُ النَّاقَةِ.

(٣) الذَّهَابُ: جَمْعُ ذَهَبَةٍ وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ السَّحَابِ. وَالْغَوَادِي: الْغَيُومُ الَّتِي تَغْدُو بِالْمَطَرِ.
وَالْمُدْجَنَاتُ: السَّحَابُ الْكَثِيفَةُ السُّودُ. وَأَمْرَعُ: أَخْصَبُ.

(٤) هُوَ زُمَيْلُ بْنُ أَبِرْدَ الْفَزَارِيِّ.

وقال ابنُ هشام: الأثيل^(١) - أمر عليّ بن أبي طالب بضرب عنق النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف، صبراً^(٢) بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت أخته قتيلة^(٣) بنت الحارث ترثيه:

يا راكباً إن الأثيل مَظِنَّةٌ من صُبحِ خامسةٍ وأنت مَوْقُ
أَبْلِغْ بها مَيْتاً بأنَّ نَحِيَّةً ما إن تزال بها النِّجائبُ تَخْفِقُ^(٤)
مُنيَّ إليك وَعَبْرَةٌ مَسْفُوحَةٌ جادت بواكفها^(٥) وأُخْرى تَخْتِقُ
هل يَسْمَعُنِي النُّضْرُ إن نادَيْتُهُ أم كيف يَسْمَعُ مَيْتٌ لا يَنْطِقُ
أَمَحْمَدُ يا خيرِ ضِنءٍ^(٦) كريمةٍ في قومها والفحلُ فحلٌ مُعْرِقُ
ما كان ضَرْكٌ لو مَنَنْتَ وربما مَنَ الفتى وهو المَغِيظُ الْمُخْنِقُ
فالنُّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ أَسْرَتْ قَرَابَةً وَأَحْقُهُمْ إن كان عِثْقٌ يُعْتِقُ
ظَلَّتْ سُيُوفُ بني أبيه تَنْوِشُهُ^(٧) لله أرحامُ هُناكَ تَشَقُّقُ
صَبْرًا يُقَادُ إلى المَنِيَّةِ مُتَعَبًا رَسَفَ الْمُقَيَّدُ وهو عانٍ مُوتِقُ^(٨)

قال ابن هشام: قال النبي ﷺ لما بلغه هذا الشعر: لو بلغني قبلَ قَتْلِهِ ما قَتَلْتُهُ.

* * *

-
- (١) الأثيل: موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء.
(٢) يقال للرجل يقدم فيضرب عنقه: قتل صبراً، يعني أنه أمسك على الموت، وكذلك كل مقتول في غير معركة ولا حرب ولا خطأ فإنه مقتول صبراً.
(٣) وقتيلة: هي بنت النضر لا أخته.
(٤) النجائب: الإبل الكريمة. وتخفق: تسرع.
(٥) الواكف: السائل.
(٦) الضنء: النسل.
(٧) تنوشه: تتناوبه.
(٨) رسف المقيّد: مشيه. والعاني: الأسير.

قال الأصمعيُّ: نظر عمرُ بن الخطَّابِ إلى الخنساء وبها ندوب في وجهها، فقال: ما هذه الندوب يا خنساء؟ قالت: من طول البكاء على أخوتي؛ قال لها: أخواك في النار؛ قالت: ذلك أطول لحزني عليهما، إني كنتُ أشفيق عليهما من النار، وأنا اليوم أبكي لهما من النار، وأنشدتُ:
وقائلةً والتَّعَشُّ قد فات حَطَّوْها لِتُذْرِكِه: يا لَهْفَ نفسِي على صَخْرٍ
ألا تَكِلتُ أُمَّ الذين عَدَوْا به إلى القَبْرِ ماذا يَحْمِلُون إلى القَبْرِ

دخلت خنساء على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وعليها صِدَار من شَعَرٍ قد استشعرته إلى جِلْدِها، فقالت لها: ما هذا يا خنساء؟ فوالله لقد ثوفي رسولُ الله ﷺ فما لِبِسْتُهُ؟ قالت: إنَّ له مَعْنَى دَعَانِي إلى لباسه، وذلك أنَّ أباي رَوَّجني سيِّد قومه، وكان رجلاً مِتْلاً فأُسْرِف في ماله حتى أنْفَدَه، ثم رَجَعَ في مالي فأَنْفَدَه أيضاً، ثم أَلْتَفْتُ إِلَيَّ فقال: إلى أين يا خنساء؟ قلتُ: إلى أخي صَخْر. قالت: فَأَتَيْنَاهُ فَقَسَّمْ، ماله شَطْرَيْن، ثم خَيْرْنَا في أَحْسَنِ الشَّطْرَيْن، فَرَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ، فلم يَزَلْ رَوَّجني حتى أَذْهَبَ جَمِيعَهُ. ثم أَلْتَفْتُ إِلَيَّ، فقال لي: إلى أين يا خنساء؟ قلتُ: إلى أخي صَخْر. قالت: فَرَحَلْنَا إِلَيْهِ، ثم قَسَّمْ ماله شَطْرَيْن، وخَيْرْنَا في أَفْضَلِ الشَّطْرَيْن. فقالت له زوجته: أما تَرْضَى أن تُشَاطِرَهُم مالَكَ حتى تُخَيِّرَهُمْ بين الشَّطْرَيْن؟ فقال:

والله لا أَمْنَحُها شِرَارَها فلو هَلَكْتُ قَدَدْتُ خِمَارَها
وَأَتَخَذْتُ مِنْ شَعْرِ صِدَارَها وهي حَصَانٌ قد كَفَّتْنِي عَارَها

وقالت الخنساء تَرْثِي أَخاها صَخْرَ بن الشَّرِيدِ:
قَدَّى بَعَيْنِكَ أُمُّ بِالْعَيْنِ عَوَّارٌ أُمُّ أَفْقَرَتْ إِذْ حَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ

كَأَنَّ عَيْنِي لِذِكْرِهِ إِذَا خَطَرْتُ فَيَضُّ يَسِيلُ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِذَارُ
فَالْعَيْنُ تَبْكِي عَلَى صَخْرٍ وَحُقَّ لَهَا وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ الْأَرْضِ أَسْتَارُ
بُكَاءَ وَالْهَيْ ضَلَّتْ أَلْيَقَتَهَا لَهَا حَنِينَانِ إِضْعَاؤُ وَإِكْبَارُ^(١)
تَزَعَى إِذَا نَسِيتَ حَتَّى إِذَا ذَكَرْتَ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالُ وَإِذْبَارُ
وَأَنَّ صَخْرًا لَتَأْتِمَ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ
حَامِي الْحَقِيقَةِ مُحَمَّدُ الْخَلِيقَةِ مَهْ يَدِي الطَّرِيقَةِ نَفَاعُ وَضَرَاؤُ

* * *

وَقَالَتْ أَيْضًا:

أَعِينِي جُودًا وَلَا تَجْمُدَا أَلَا تَبْكِيَانِ لِصَخْرٍ النُّدَى
أَلَا تَبْكِيَانِ الْجَرِيءَ الْجَوَادَ أَلَا تَبْكِيَانِ الْفَتَى السَّيِّدَا
طَوِيلَ النُّجَادِ رَفِيعَ الْعِمَا د سَادَ عَشِيرَتِهِ أَمْرَدَا
يُحْمَلُهُ الْقَوْمُ مَا غَالَهُم وَإِنْ كَانَ أَصْغَرَهُمْ مَوْلِدَا
جَمُوعُ الضُّيُوفِ إِلَى بَابِهِ يَرَى أَفْضَلَ الْكَسْبِ أَنْ يُحْمَدَا

* * *

وَقَالَتْ أُخْتُ الْوَلِيدِ بْنِ طَرِيفٍ تَرْتِي أَخَاهَا الْوَلِيدَ بْنِ طَرِيفٍ:

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى أَبْنِ طَرِيفٍ
فَتَى لَا يُرِيدُ الْعِزَّ إِلَّا مِنَ التُّقَى وَلَا الْمَالَ إِلَّا مِنْ قَتَا وَسُيُوفٍ
وَلَا الذُّخْرَ إِلَّا كُلَّ جَرْدَاءٍ صِلْدِمٍ^(٢) وَكُلَّ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ حَلِيفِ

(١) إِصْغَارُهَا: حَنِينُهَا إِذَا خَفَضَتْهُ. وَإِكْبَارُهَا: حَنِينُهَا إِذَا رَفَعَتْهُ.

(٢) الْجَرْدَاءُ: الْقَصِيرَةُ الشَّعْرُ. وَالصِّلْدِمُ: الشَّدِيدَةُ الْحَافِرُ.

فَقَدْنَاهُ فَقَدَانُ الرَّبِيعِ فَلَيْتَنَا قَدَيْتَنَاهُ مِنْ سَادَاتِنَا بِأُلُوفِ
خَفِيفٌ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ إِذَا عَدَا وَلَيْسَ عَلَى أَعْدَائِهِ بِخَفِيفِ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفَا فَإِنِّي أَرَى الْمَوْتَ وَقَاعًا بِكُلِّ شَرِيفِ

* * *

وقال آخر يزني أخاه:

أَخْ طالما سَرَنِي ذِكْرُهُ فَقَدْ صِرْتُ أَشَجَى إِلَى ذِكْرِهِ
وَقَدْ كُنْتُ أَغْدُو إِلَى قَصْرِهِ فَقَدْ صِرْتُ أَغْدُو إِلَى قَبْرِهِ
وَكُنْتُ أُرَانِي غَنِيًّا بِهِ عَنْ النَّاسِ لَوْ مُدَّ فِي عُمَرِهِ
وَكُنْتُ إِذَا جِئْتُهُ زَائِرًا فَأَمْرِي يَجُوزُ عَلَى أَمْرِهِ

* * *

وقال كعب يرثي أخاه أبا المغوار^(١):

تَقُولُ سَلِمِي مَا لِي جِسْمِكَ شاحِبًا كَأَنَّكَ يَحْمِيكَ الطَّعَامَ طَبِيبُ
فَقُلْتُ شُجُونٌ مِنْ خُطُوبٍ تَتَابَعَتْ عَلَيَّ كِبَارٌ وَالزَّمَانُ يَرِيبُ
لَعَمْرِي لَنْ كَانَتْ أَصَابَتْ مَنِيَّةً أَخِي فَالْمَنَانَا لِلرِّجَالِ شَعُوبُ^(٢)
فَإِنِّي لَبَاكِيهَ وَإِنِّي لَصَادِقُ عَلَيْهِ وَبَعْضُ الْقَائِلِينَ كَذُوبُ
أَخِي مَا أَخِي لَا فَاخِشَ عِنْدَ بَنِيهِ وَلَا وَرَعَ عِنْدَ اللَّقَاءِ هَيُوبُ
أَخْ كَانَ يَكْفِينِي وَكَانَ يُعِينُنِي عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنْوُبُ
هُوَ الْعَسَلُ الْمَازِي لَيْنًا وَشِيْمَةً وَلَيْتَ إِذَا لَاقَى الرِّجَالَ قَطُوبُ^(٣)

(١) اسم أبي المغوار على الأصح هرم؛ وقيل شبيب.

(٢) شعوب: أي مفرقة.

(٣) المازي: الأبيض، وهو أجود العسل. وقطوب: عابس.

هَوَتْ أُمُّهُ^(١) مَا يَبْعَثُ الصُّبْحُ غَادِيَا
 كَعَالِيَةِ الرُّمَحِ الرُّدَيْنِي لَمْ يَكُنْ
 وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَا
 فَقُلْتُ أَدْعُ أُخْرَى وَارْفَعِ الصَّوْتِ ثَانِيَا
 يُجِيبُكَ كَمَا قَدْ كَانَ يَفْعَلُ إِنَّهُ
 وَحَدَّثْتُمَانِي أَمَّا الْمَوْتُ بِالْقُرَى
 فَلَوْ كَانَتْ الْمَوْتَى تُبَاعُ اشْتَرَيْتُهُ
 بِعَيْنِي أَوْ يُمْنَى يَدَيَّ وَخِلْتَنِي
 لَقَدْ أَفْسَدَ الْمَوْتُ الْحَيَاةَ وَقَدْ أَتَى
 أَتَى دُونَ حُلُوِّ الْعَيْشِ حَتَّى أَمَرَهُ
 فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَاهُ مَا ذَرَّ شَارِقُ
 فَإِنْ تَكُنِ الْآيَامُ أَحْسَنَ مَرَّةً
 وَمَاذَا يَرُدُّ اللَّيْلُ حِينَ يُوُوبُ
 إِذَا أَبْتَدَرَ الْخَيْلَ الرِّجَالُ يَخِيبُ
 فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبُ
 لَعَلَّ أَبَا الْمَغْوَارِ مِنْكَ قَرِيبُ
 بِأَمْثَالِهَا رَحْبُ الذَّرَاعِ أَرِيبُ
 فَكَيْفَ وَهَاتِي هَضْبَةً وَكَيْبُ
 بِمَا لَمْ تَكُنْ عَنْهُ الثُّفُوسُ تَطِيبُ
 أَنَا الْغَائِمُ الْجَذْلَانُ حِينَ يُوُوبُ
 عَلَى يَوْمِهِ عِلْقُ^(٢) إِلَيَّ حَبِيبُ
 قُطُوبُ عَلَى آثَارِهِنَّ نُكُوبُ^(٣)
 وَمَا اهْتَزَّ فِي فَرْعِ الْأَرَاكِ قَضِيبُ^(٤)
 إِلَيَّ لَقَدْ عَادَتْ لَهْنُ ذُنُوبُ

* * *

(١) هوت أمه: دعاء عليه، ومعناه التعجب. ويريد هنا استعظام الحزن عليه.

(٢) العِلْق: النفيس.

(٣) نكوب: مصائب.

(٤) ذر شارق: أشرقت شمس. الأراك: نوع من الشجر.

الفصل الرابع: في رثاء الزوجة

جرير يرثي زوجته

هو أبو حرزة جرير بن عطية (٣٣ هـ / ٦٥٣ م - ١١٤ هـ / ٧٣٣ م) اشتهر بالهجاء، وراح يرمي به الخصوم قوياً شديداً للهجة، فذاع صيته، ورددت اسمه الركبان. نشبت بينه وبين الفرزدق حرب هجائية دامت خمسين سنة، كان الشاعر منهما ينظم القصيدة ويبعث بها إلى خصمه، فينقض الخصم ما قيل فيها بقصيدة ينظمها على الوزن نفسه، والقافية نفسها. وسميت تلك القصائد «النقائض».

له ديوان شعري في المدح، والرثاء، والغزل، والهجاء. ورثاء جرير سواء أكان في ذويه أم في غيرهم، هو رثاء من يشعر بالمصيبة شعوراً عميقاً، فينهض لها كيانه، ثم يطلق اللسان فيما يفيض من القلب، وإذا اللسان ترجمان النفس، والألفاظ أنفاس حارة، وإذا الشعر يسيل سيلان الدموع المنهمرة، في انسجام، وسهولة، ورقة؛ وإذا أمامك مشهد مؤلم، هو مشهد تترأى فيه ذكريات الرجل أحبة وصفات محبة إلى كل نفس، وأعمالاً غراء؛ وإذا الشاعر ينطلق بين المناجاة، والنداء، ومخاطبة الميت، والأخبار، رائع الأسلوب، عجيب السلاسة؛ وإذا الزفرات المتصاعدة أدعية واستلفاتاً تقف بين المقطع والمقطع، وبين الفكرة والفكرة، شرارات تعصر القلوب وتستقطر الجفون.

ومن قصيدة طويلة وجهها إلى خصمه الفرزدق هاجياً، افتتحها برثاء

امراته، فقال:

لَوْلَا الْحَيَاءُ، لَعَادَنِي أَسْتِغْبَارُ، وَلَزَرْتُ بَيْنَكَ، وَالْحَبِيبُ يُزَارُ^(١)
وَلَقَدْ نَظَرْتُ، وَمَا تَمَتُّعُ نَظْرَةً فِي اللَّحْدِ حَيْثُ تَمَكَّنَ الْمُحْفَارُ^(٢)
وَلَهَتْ قَلْبِي، إِذْ عَلَتْنِي كَبْرَةٌ، وَذَوُّ التَّمَائِمِ مِنْ بَيْنِكَ صِغَارُ^(٣)
أَزْعَى النَّجُومِ، وَقَدْ مَضَتْ غُورِيَّةٌ، غَضَبُ النَّجُومِ كَأَنَّهُنَّ صَوَارُ^(٤)
نِغَمَ الْقَرِينِ، وَكُنْتُ عَلِقَ مَضْنَةً وَأَرَى بِنَغْفٍ بُلْيَةً الْأَخْجَارُ^(٥)
عَمَرْتُ مُكْرَمَةَ الْمَسَاكِ وَفَارَقْتُ مَا مَسَّهَا صَلَفٌ وَلَا إِفْتَارُ^(٦)
فَسَقَى صَدَى جَدَثٍ، بِزُقَّةٍ ضَاكِ هَزِمَ أَجَشُّ، وَدِيمَةٌ مِذْرَارُ^(٧)
هَزِمَ أَجَشُّ، إِذَا اسْتَحَارَ بِلَدَةٍ فَكَأَنَّمَا بِجَوَائِهَا الْأَنْهَارُ^(٨)
مُتَرَاكِمٌ رَجُلٌ يُضِيءُ وَمِیْضُهُ كَالْبُلْقِ تَحْتَ بُطُونِهَا الْأَمْهَارُ^(٩)
كَانَتْ مُكْرَمَةَ الْعَشِيرِ وَلَمْ يَكُنْ يَخْشَى غَوَائِلَ أُمِّ حَزْرَةَ جَارُ^(١٠)
وَلَقَدْ أَرَاكَ كُسِيتَ أَجْمَلَ مِنْظَرٍ وَمَعَ الْجَمَالِ سَكِينَةٌ وَوَقَارُ

(١) استعبار: بكاء. بيتك: قبرك.

(٢) المحفار: آلة الحفر.

(٣) ولهة: حزينة أشد الحزن. التمايم: ج تيمة وهي خرزة أو عوذة تُعلَق في عنق الولد دفعاً للأخطار.

(٤) الغورية: التي تأخذ الغور للغروب والسقوط: العصب: الجماعات. الصوار: قطع بقر الوحش.

(٥) العلق: النفيس من كل شيء. المضنة: ما يضمن به. النغف: أسفل الجبل وأعلى الوادي. بلية: اسم موضع.

(٦) المساك: اسم الإمساك. الصلف: بغض من الزوج. الإقتار: العسر.

(٧) الصدى: كان العرب يعتقدون بأنه يخرج من رأس القتل طير يسمونه «صدى» يظل عطشان يصيح «اسقوني» حتى يؤخذ بثأره. الهزم: السحاب الراعد. الأجش: الغليظ الصوت من الرعد. برقة ضاحك: اسم موضع.

(٨) الجواء: ج جو وهو الناحية والجهة.

(٩) زجل: ذو جلبة، البلق ج أبلق وهو ما كان في لونه سواد وبياض.

(١٠) الغوائل: المصائب.

وَالرَّيْحُ طَيِّبَةٌ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهَا
وَإِذَا سَرَيْتُ رَأَيْتُ نَارَكَ تَوَرَّتْ
صَلَّى الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ تُخِيرُوا
وَعَلَيْكَ مِنْ صَلَوَاتِ رَبِّكَ كُلَّمَا
يَا نَظْرَةً لَكَ، يَوْمَ هَاجَتْ عَبْرَةٌ
تُخَيِّي الرُّوَامِسُ رُبْعَهَا، فَتُجِدُهُ
وَكَأَنَّ مَنَزِلَةً لَهَا، بِحُلَا حِلٍ
لَا تُكْزِرَنَّ، إِذَا جَعَلْتَ تَلُومِي
كَانَ الْخَلِيطُ هُمُ الْخَلِيطُ، فَأَضْبَحُوا
لَا يَلْبَثُ الْقَرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا

وَالْعِزُّ لَآ دَنَسٌ وَلَا خَوَارُ^(١)
وَجْهًا أَغْرَ، يَزِيئُهُ الْإِسْفَارُ
وَالصَّالِحُونَ عَلَيْكَ، وَالْأَبْرَارُ
نَصَبَ الْحَجِيجِ مُلْبِدِينَ، وَغَارُوا^(٢)
مِنْ أُمِّ حَزْزَةَ، بِالنُّمَيْرَةِ دَارُ
بَغْدِ الْبَلَى، وَتُمِيتُهُ الْأَمْطَارُ^(٣)
وَحَيُّ الزُّبُورِ تُجِدُهُ الْأَخْبَارُ^(٤)
لَا يَذْهَبَنَّ بِحِلْمِكَ الْإِكْثَارُ
مُتَبَدِّلِينَ، وَيَالِدِيَارِ دِيَارُ
لَيْلٍ يَكُرُّ عَلَيْهِمْ وَنَهَارُ!

* * *

(١) الخوار: الضعيف.

(٢) نصب: تعب. الحجيج ج حاج. ملبدين: مقيمين. غار الرجل: نام.

(٣) الروامس: الرياح.

(٤) الزبور: المزامير. تجده: تكتبه فتحكمه.

ديك الجنّ يرثي زوجته

هو عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي (١٦١هـ/ ٧٧٨م - ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م) المعروف بديك الجنّ، شاعر مجيد فيه مجون، من شعراء العصر العباسي. سمي بديك الجنّ لأنّ عينيه كانتا خضرواين. أصله من سلمية (قرب حماة)، ومولده ووفاته بحمص في سورية. لم يفارق بلاد الشام. ولم ينتجع بشعره. له «ديوان شعر»^(١).

ولديك الجنّ قصّة طريفة مع زوجته، ورد ملخصها أنّه أحبّ فتاة نصرانية تدعى ورد، فتزوَّجها بعدما اعتنقت الإسلام، وعاشا معاً حياةً هائلة سعيدة. وعندما ساءت حال ديك الجنّ المادّية، قصد صديقه أحمد بن علي الهاشمي في سلمية، وأقام عنده مدّة. وفي أثناء ذلك لقى ابن عمّه أبو الطيب خبر علاقة ورد بأحد غلمان الشاعر المدعو بكر، وكان أبو الطيب يبغض الشاعر لهجائه له.

شاع خبر علاقة ورد ببكر، حتى وصل إلى مسامع ديك الجنّ الذي استأذن صديقه أحمد في العودة إلى حمص، وكان أن نجحت المؤامرة، فقتل ديك الجنّ زوجته ورد وعشيّقها المزعوم بكر. وبعد مدّة عرف الحقيقة، فندم ندمًا كبيرًا على فعلته وراح يبكي زوجته طوال حياته. ومما قال فيها بعد موتها نكتطف ما يلي: [من الطويل]

وأنسّ عذب الثنايا وجدّتها على خطّة فيها للذي اللب متلف

(١) الزركلي: الأعلام ٥/٤.

فأصلتُ حدَّ السيفِ في حرّ وجهها وقلبي عليها من جوى الوجدِ يرجفُ
فخرّتُ كما خرّتُ مهاةً أصابها أخو قنصٍ مستعجلٌ متعسّفُ
سيقتلني حزناً عليها تأسّفي وهيهات ما يُجدي عليّ التأسّفُ

* * *

يا طلعةً طلع الجِمامُ^(١) عليها وجنى لها تمر الردى بيديها
رويتُ من دمها الثرى ولطالما روى الهوى شفتيّ من شفتيها
قد باتَ سيفي في مجالٍ وشاحيها ومدامعي تجري على خديها
فوحقُّ نعليها وما وطئ الحصى شيءٌ أعزُّ عليّ من نعليها
ما كان قتلها لأنّي لم أكن أبكي إذا سقط الغبارُ عليها
لكن ضنّتُ على العيونِ بحسنها وأنفتُ من نظرِ الحسودِ إليها

* * *

(١) الجِمام والرّدى: الموت.

نزار قبّاني يرثي زوجته

شاعر من كبار الشعراء العرب المعاصرين، فلسطيني الأصل، سوري المولد والجنسية، لبناني الإقامة والهوى. ولد في دمشق في السنة ١٩٣٢م/١٣٤٢هـ، وتخرّج في الجامعة السورية بإجازة في الحقوق، وخدم وطنه في السلك الدبلوماسي ما بين ١٩٤٥م، والسنة ١٩٦٦م. يُعتبر من كبار المجدّدين في الأدب العربي المعاصر. لُقّب بـ«شاعر المرأة»، واشتهر بالغزل، لا بالرثاء، ولكن له قصيدة طويلة قالها في رثاء زوجته العراقية بلقيس عندما قُتلت بانفجار في بيروت، وهي تدلّ على أنّ عبقرية الشاعر لا تقتصر على ضرب من ضروب الفنّ الغنائي، فالمُبدع المُجيد يُبدع ويُجيد في أيّ فنّ غنائيّ عزف على أوتاره. وفيما يلي بعض المقاطع من هذه القصيدة:

* * *

شُكْرًا لَكُمْ . . .

شُكْرًا لَكُمْ

فَحَبِيبَتِي قُتِلَتْ، وصار بِوُسْعِكُمْ

أَنْ تَشْرَبُوا كَأْسًا عَلَى قَبْرِ الشَّهِيدَةِ

وَقَصِيدَتِي اغْتِيلَتْ . . .

وَهَلْ مِنْ أُمَّةٍ فِي الْأَرْضِ

إِلَّا نَحْنُ نَغْتَالُ الْقَصِيدَةَ

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

كَانَتْ أَجْمَلَ الْمَلِكَاتِ فِي تَارِيخِ بَابِلَ

بَلْقَيْسُ . . .

كَانَتْ أَطْوَلَ التَّخْلَاطِ فِي أَرْضِ الْعِرَاقِ

كَانَتْ إِذَا تَمْشِي

تُرَافِقُهَا طَوَاوَيْسُ . . .

وَتَتَّبِعُهَا أَيَّامُ . . .

بَلْقَيْسُ . . . يَا وَجَعِي . . .

وَيَا وَجَعَ الْقَصِيدَةِ تَلَمَّسُهَا الْأَنَامِلُ

هَلْ يَا تُرَى . . .

مِنْ بَعْدِ شَعْرِكَ سَوْفَ تَرْتَفِعُ السَّنَابِلُ؟؟

* * *

يَا نَيْوَى الْخَضِرَاءِ

يَا عَجْرِيَّتِي الشَّقْرَاءِ

يَا أَمْوَاجَ دِجْلَةَ

تَلَبَّسُ فِي الرَّبِيعِ بِسَاقِهَا

أَخْلَى الْخَلَاحِلَ

* * *

بَلْقَيْسُ

لَا تَتَغَيَّبِي عَنِّي

فَإِنَّ الشَّمْسَ بَعْدَكَ

لَا تُضِيءُ عَلَى السَّوَاكِحِلِ

* * *

بَلْقَيْسُ!

أَيُّهَا الشَّهِيدَةُ . . وَالْقَصِيدَةُ

وَالْمُطَهَّرَةُ النَّقِيَّةُ . .

سَبَّأُ تُفْتَشُ عَنْ مَلِيكَتِهَا

فَرْدِي لِلْجَمَاهِيرِ التَّحِيَّةُ

* * *

الْمَوْتُ فِي فُتُجَانِ قَهْوَتِنَا . .

وَفِي مِفْتَاحِ شِقَّتِنَا . .

وَفِي أَزْهَارِ شُرْفَتِنَا . .

وفي وَرَقِ الْجَرَائِدِ . .

والحروفِ الأَبْجَدِيَّةِ . .

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

يا عِطْرًا بِذَاكِرتي

ويا قَبْرًا يُسَامِرُ في الغَمَامِ

قَتَلُوكَ، في بيروت، مِثْلَ أَيِّ غَزَالَةٍ

مِنْ بَعْدِهَا . . قَتَلُوا الكلامَ

* * *

بَلْقَيْسُ

مُشتاقون . . مُشتاقون . . مُشتاقون . .

والبيتُ الصَّغِيرُ . .

يُسَائِلُ عَنْ أَمِيرَتِهِ المَعْطَرَةِ الدُّيُولِ

نُضْغِي إِلَى الأَخْبَارِ . . الأَخْبَارُ غَامِضَةٌ

ولا تَزُوي فُضُولَ

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

مُذْبِحُونَ حَتَّى العَظَمِ

والأولادُ لا يذرونَ ما يَجْري

ولا أذري أنا ماذا أقولُ

* * *

هل تفرعين البابَ بَعْدَ دَقَائِقِ

هل تَخْلَعِينَ المعطفَ الشَّتَوِيَّ

هل تأتينَ بِاسِمةٍ . . .

وناضرةً . . .

ومُشرقةً كأزهارِ الحُقُولِ

* * *

بَلْقِيسُ . . .

إنَّ زُرُوعَكَ الخَضراءَ

ما زالتِ على الحيطانِ باكيةً

وَوَجْهَكَ لَمْ يَزَلْ مُتَّقِلاً

بينَ المرايا والسَّائِرِ

حَتَّى سَجَّارَتِكَ التي أَشْعَلَتْهَا

لَمْ تَنْطَفِئْ

ودُخانُها

ما زال يَرْفُضُ أَنْ يُسَافِرَ

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

مَطْعُونُونَ مَطْعُونُونَ فِي الْأَعْمَاقِ

وَالْأَخْدَاقُ يَسْكُنُهَا الدُّهُولُ

بَلْقَيْسُ . .

كَيْفَ أَخَذْتَ أَيَّامِي وَأَخْلَامِي

وَأَلْغَيْتِ الْحَدَائِقَ وَالْفُصُولَ!!؟

* * *

يا زَوْجَتِي . . .

وَحَبِيبَتِي . . . وَقَصِيدَتِي . . . وَضِيَاءَ عَيْنِي

قَدْ كُنْتُ عُضْفُورِي الْجَمِيلَ

فَكَيْفَ هَرَبْتَ يَا بَلْقَيْسُ مِنِّي؟

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

هَذَا مَوْعِدُ الشَّايِ الْعِرَاقِيِّ الْمُعَطَّرِ

وَالْمُعَتَّقِ كَالسَّلَافَةِ

فَمَنْ الَّذِي سَيُوزَعُ الْأَقْدَاحَ آيَّتُهَا الزَّرَافَةُ

وَمَنْ الَّذِي تَقْلَ الْفُرَاتَ لَبَيْتِنَا

وورود دجلة والزصافة

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

يا بَلْقَيْسُ . . .

يا بَلْقَيْسُ . . .

كُلُّ عَمَامَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ

فَمَنْ تُرَى يَبْكِي عَلَيَّ

بَلْقَيْسُ . . . كَيْفَ رَحَلَتْ صَامِتَةً

وَلَمْ تَضْعِي يَدَيْكَ عَلَى يَدَيَا؟

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

أَسْأَلُكَ السَّمَاحَ، فَرُبَّمَا

كَأَنْتَ حَيَاتُكَ فِدْيَةٌ لِحَيَاتِي

إِنِّي لَأَعْرِفُ جَيِّدًا

أَنَّ الَّذِينَ تَوَرَّطُوا فِي الْقَتْلِ كَانَ مُرَادُهُمْ

أَنْ يَقْتُلُوا كَلِمَاتِي .

نامي بِحِفْظِ الله ، أَيْتُهَا الْجَمِيلَةَ
فالشَّعْرُ بِعَدَاكَ مُسْتَحِيلُ
والأُنُوثَةُ مُسْتَحِيلَةٌ
سَتَظَلُّ أَجْيَالٌ مِنَ الْأَطْفَالِ
تَسْأَلُ عَنْ ضِفَائِرِكَ الطَّوِيلَةِ
وَتَظَلُّ أَجْيَالٌ مِنَ الْعُشَّاقِ
تَقْرَأُ عَنْكَ أَيْتُهَا الْمَعْلَمَةُ الْأَصِيلَةَ . . .

* * *

الفصل الخامس: في رثاء الزوج

لبانة بنت علي بن ربيعة ترثي زوجها

هي شاعرة من شواعر العرب في العصر العباسي، كانت من أجمل نساء عصرها، تزوجها محمد بن هارون الرشيد، لكنه سرعان ما قُتل عنها، ولم يبقَ بها، فقالت ترثيه:

أبكيك لا للنعيم والأُنس بل للمعالي والرمح والفرس
يا فارسًا بالعراء مطرَحًا خانتَه قَواده مع الحرس
أبكى على سيّد فُجعتُ به أزمَلني قبل ليلة العرس
أَمَ مَنْ لَبِزَ أَمَ مَنْ لَعائِدَة أَمَ مَنْ لَذِكِرِ الإله في العَلَسِ
مَنْ لِلحروبِ التي تَكُونُ لها إِنْ أَضْرِمَتْ نارُها بلا قَبسٍ^(١)

* * *

أعرابية ترثي زوجها

قالت أعرابية ترثي زوجها^(٢):

كُنّا كغصنين في جرثومة^(٣) سَمَوّا حينًا بأحسنِ ما تسمو له الشَّجَرُ

(١) العقد الفريد ٢٧٧/٣.

(٢) عن العقد الفريد ٢٧٧/٣؛ وفي عيون الأخبار ٣/٧٥ أنَّ الأبيات لصفيّة الباهليّة ترثي أخاها.

(٣) الجرثومة: الأصل.

حتى إذا قيل قد طالت فروعهما وطاب قنواهما^(١) واستنظر الثمر
أخنى على واحد رب الزمان وما يُبقي الزمان على شيء ولا يذر^(٢)
كنا كأنجم ليل بينها قمرٌ يجلو الدجى فهوى من بينها القمر

* * *

(١) القنو: العذق، وهو من الثخل كالعنقود من العنب.
(٢) أخنى عليه الزمان: أهلكه. رب الزمان: مصائبه. يذر: يترك.

الباب السابع

في التعازي^(١)

(١) أخذنا هذا الملحق من كتاب «العقد الفريد».

قال عبد الرحمن بن أبي بكر لسليمان بن عبد الملك يُعزِّيهِ في ابنه
أيوب وكان وليَّ عهده وأكبر ولده: يا أمير المؤمنين، إنه من طال عمره فَقَدْ
أَحَبَّته، ومن قَصُرَ عُمره كانت مُصِيبته في نفسه. فلو لم يكن في ميزانك
لَكُنْتَ في ميزانه.

* * *

وَكَتَبَ الحَسَنُ بن أبي الحسن إلى عُمَر بن عبد العزيز يُعزِّيهِ في ابنه
عبد الملك:

وَعَوَّضْتَ أَجْرًا مِنْ فَقِيدٍ فَلَا يَكُنْ فَقِيدُكَ لَا يَأْتِي وَأَجْرُكَ يَذْهَبُ

* * *

قال العُثْبِيُّ: قال عبد الله بن الأَهِمَّ: مات لي ابن وأنا بمكة فجزعتُ
عليه جَزَعًا شَدِيدًا، فَدَخَلَ عَلَيَّ ابْنُ جُرَيْجٍ يُعزِّيَنِي، فقال لي: يا أبا محمد،
أَسَلُّ صَبْرًا وَأَخْتِسَابًا قَبْلَ أَنْ تَسْلُوَ غَفْلَةً وَنِسْيَانًا كَمَا تَسْلُوُ الْبَهَائِمَ. وهذا
الكلامُ لعلِّي بن أبي طالب كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ يُعزِّي به الأَشْعَثُ بن قيس في ابن
له، ومنه أَخَذَهُ ابن جُرَيْجٍ. وقد ذَكَرَهُ حبيب في شعره فقال:

وقال عليٌّ في التعازي لِأَشْعَثٍ وخاف عليه بعضُ تلك المائِمِ
أَتَضْبِرُ لِلْبُلُوى عَزَاءً وَحِسْبَةً فَتُؤَجَّرَ أَمْ تَسْلُوُ سُلُوَ الْبَهَائِمِ

* * *

أتى عليّ بن أبي طالب كَرَّمَ الله وجهه لَأَشْعَثَ يُعْزِيهِ عن أبنه، فقال:
 إِن تَحْزَنَ فَقَدْ أَسْتَحَقُّتْ ذَلِكَ مِنْكَ الرَّحْمَ، وَإِن تَصْبِرْ فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْفًا مِنْ
 كُلِّ هَالِكٍ، مع أَنَّكَ إِن صَبِرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِن
 جَزَعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ آثِمٌ.

* * *

وعزّى أَبْنُ السَّمَاءِ رَجُلًا فَقَالَ: عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ، فِيهِ يَغْمَلُ مِنْ
 أَحْتَسَبَ، وَإِلَيْهِ يَصِيرُ مَنْ جَزِعَ، وَاَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَتْ مُصِيبَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا أَعْظَمُ
 مِنْهَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيهَا أَوْ مَعْصِيَتُهُ بِهَا.

* * *

قال الأصمعيّ: عزّى صالِحُ المُرِّي رَجُلًا بِأَبْنِهِ، فَقَالَ لَهُ: إِن كَانَتْ
 مُصِيبَتُكَ لَمْ تُحْدِثْ لَكَ مَوْعِظَةً فَمُصِيبَتُكَ بِنَفْسِكَ أَعْظَمُ مِنْ مُصِيبَتِكَ
 بِأَبْنِكَ، وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّهْنِئَةَ عَلَى أَجَلِ الثَّوَابِ أَوْلَى مِنَ التَّعْزِيَةِ عَلَى عَاجِلِ
 الْمَصِيبَةِ.

* * *

قال العُثْبِيُّ: عزّى أَبِي رَجُلًا فَقَالَ: إِنَّمَا يَسْتَوْجِبُ عَلَى اللَّهِ وَعْدَهُ مَنْ
 صَبَرَ لِحَقِّهِ، فَلَا تَجْمَعُ إِلَى مَا قُجِّعْتَ بِهِ الْفَجِيعَةَ بِالْأَجْرِ، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ
 الْمَصِيبَتَيْنِ عَلَيْكَ، وَلِكُلِّ أَجْتِمَاعٍ فُرْقَةٌ إِلَى دَارِ الْحُلُولِ.

* * *

عزّى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي بُنْي
 لَهُ صَغِيرٍ، فَقَالَ: عَوَّضَكَ اللَّهُ مِنْهُ مَا عَوَّضَهُ اللَّهُ مِنْكَ.

* * *

وكان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إذا عزّى قومًا قال: عليكم
 بالصَّبْر، فَإِنَّ بِهِ يَأْخُذُ الْحَازِمُ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْجَازِعُ.

وكان الحسنُ يقول في المُصيبة: الحمدُ لله الذي آجَرَنَا على ما لو
كَلَّفْنَا غَيْرَهُ لَعَجَزْنَا عنه.

* * *

كتاب تعزية

أما بعد، فإنَّ أحقَّ مَنْ تعزَّى، وأولى مَنْ تأسَّى وسلَّم لأمر الله، وقبِلَ
تأديبه في الصبر على نكبات الدنيا، وتجرَّع غصص البلوى، مَنْ تنجَّز من
الله وعده، وفهم عن كتابه أمره، وأخلص له نفسه، واعترف له بما هو
أهله. وفي كتاب الله سلوة من فقد كلَّ حبيب وإن لم تطب النفس عنه،
وأنس من كلِّ فريد، وإن عظمت اللوعة به، إذ يقول عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ
هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١) وحيث يقول: ﴿الَّذِينَ إِذَا
أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ * أولئك عليهم صلوات من
ربهم ورحمة * وأولئك هم المهتدون^(٢). الموت سبيل الماضين
والغابرين، ومورد الخلائق أجمعين، وفي أنبياء الله وسالف أوليائه
أفضل العبرة، وأحسن الأسوة، فهل أحد منهم إلّا وقد أخذ من فجائع
الدنيا بأجزل العطاء، ومن الصبر عليها بأحتساب الأجر فيها بأوفر
الأنصبة؛ فجع نبينا عليه الصلاة والسلام بأبنة إبراهيم، وكان ذخراً
الإيمان، وقرّة عين الإسلام، وعقب الطهارة، وسليل الوحي، ونتيج
الرحمة، وحضين الملائكة، وبقية آل إبراهيم وإسماعيل صلوات الله عليهم
أجمعين وعلى عامة الأنبياء والمرسلين، فعمّت الثقلين مصيبتهم، وخصّت
الملائكة رزيته، ورضي ﷺ من فراقه بثواب الله بدلاً، ومن فقدانه عوضاً،
فشكر قضاؤه، وأتبع رضاه، فقال: يَخْزَنُ الْقَلْبُ وَتَذْمَعُ الْعَيْنُ، ولا تقول ما
يُسْخَطُ الرَّبَّ، وإنا بك يا إبراهيم لمخزونون. وإذا تأمل ذو النظر ما هو
مُسْفٍ عليه من غير الدنيا، وانتصح نفسه وفكره في غيرها بتنقل الأحوال،

(١) القصص: ٨٨

(٢) البقرة: ١٥٦ و ١٥٧

وتقارب الآجال، وأنقطع يسير هذه المدة، ذلت الدنيا عنده، وهانت المصائب عليه، وتسهلت الفجائع لديه، فأخذ للأمر أهبة، وأعد للموت عذته. ومن صحب الدنيا بحسن روية، ولا حظها بعين الحقيقة، كان على بصيرة من وشك زوالها. قال النبي ﷺ: اذكروا الموت فإنه هادم اللذات، ومُنْعَصُ الشَّهَوَات. وليس شيء مما اقتصصت إلا وقد جعلك الله مُقَدِّمًا في العلم به. ولعمري إن الخطب فيما أصبت به لعظيم، غير أن تعوضه من الأجر والمثوبة عليه بحسن الصبر يهونان الرزية وإن ثقلت، ويسهلان الخطب وإن عظم. وهب الله لك من عظمة الصبر ما يكمل لك به زلفى الفائزين، ومزيد الشاكرين، وجعلك من المرتضين قولاً وفعلاً، الذين أعطاهم الحسنى، ووقفهم للصبر والتقوى.

* * *

قال محمد بن الفضل عن أبي حازم: مات عتبة بن عياض بن غثم الفهري، فعزى رجل أباه فقال: لا تجزع عليه فقد قتل شهيداً؛ فقال: وكيف أجزع على من كان في حياته زينة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات.

* * *

قال ابن الغاز: حدثنا عيسى بن إسماعيل قال: سمعت الأصمعي يقول: دخلت على جعفر بن سليمان وقد ترك الطعام جزعاً على أخيه محمد بن سليمان، فأنشدته بيتين، فما برحت حتى دعا بالمائدة. فقلت للأصمعي: ما هما، فسكت: فسألته، فقال: أتدري ما قال الأحوص؟ قلت: لا أدري؛ قال؛ قال الأحوص:

قد زاده كلفاً بالحب إذ منعت أحب شيء إلى الإنسان ما منيعاً

* * *

قال أبو موسى: والأبيات لأراكة الثقي يَرثي بها عمرو بن أراكة

ويعزّي نفسه حيث يقول:

لَعَمْرِي لئن أَتَبَعْتَ عَيْنَكَ مَا مَضَى به الدَّهْرُ أَوْ ساق الحِمَامُ إِلَى القَبْرِ
لَتَسْتَنْفِذَنَّ مَاءَ الشُّؤُونِ بِأَسْرِهِ وإنْ كُنْتُ تَمْرِيهِنَّ مِنْ ثَبَجِ البَحْرِ^(١)
تَبَيَّنَ فَإِنْ كَانَ البُكَاءُ رَدَّ هَالِكًا على أَحَدٍ فَاجْهَدْ بُكَاءَكَ على عَمْرٍو
فَلَا تَبْكُ مَيِّتًا بعدَ مَيِّتٍ أَجَنَّةُ^(٢) عليَّ وَعَبَّاسُ وَاَلْ أَبِي بَكْرُ

* * *

قال أبو عمر بن يزيد: لما مات أخو مالك بن دينار، بكى مالك،
وقال: يا أخي، لا تَقْرُ عَيْنِي بعدك حتى أعلم أفي الجنة أنت أم في النار،
ولا أعلم ذلك حتى ألحق بك.

* * *

وقالت أعرابية، ورأت ميتًا يُدْفَن: جافى الله عن جَنَبَيْهِ الثَّرَى وأعانهُ
على طول البَلَى.

* * *

وعزّي أعرابي رجلًا فقال: أوصيك بالرّضا من الله بقضائه، والتنجز
لما وعد به من ثوابه، فإنّ الدُّنيا دار زوال، ولا بد من لقاء الله.

* * *

وعزّي أيضًا رجلًا فقال: إن من كان لك في الآخرة أجرًا، خير لك
ممن كان لك في الدنيا سُورًا.

* * *

(١) مرى الشيء: استخرجه. وثبج كل شيء: معظمه.

(٢) في بعض الأصول: «أحبه».

وَجَزِعَ رَجُلٌ عَلَى ابْنِ لَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الْحَسَنِ؛ فَقَالَ لَهُ: هَلْ كَانَ ابْنُكَ يَغِيبُ عَنْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَانَ مَغِيبُهُ عَنِّي أَكْثَرَ مِنْ حَضُورِهِ؛ قَالَ: فَاتْرُكْهُ غَائِبًا فَإِنَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْكَ غَيْبَةً الْأَجْرُ لَكَ فِيهَا أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْغَيْبَةِ. وَعَزَّى رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا مُسْلِمًا، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ مِثْلِي لَا يُعْزِي مِثْلَكَ، وَلَكِنْ انْظُرْ مَا زَهَدٌ فِيهِ الْجَاهِلُ فَارْغَبْ فِيهِ.

* * *

وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَجْلِسِهِ وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ، إِذْ سَمِعَ نَاعِيَةً فِي بَيْتِهِ، فَتَهَضَّ إِلَى مَنْزِلِهِ فَسَكَنَهُمْ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَجْلِسِهِ، فَقَالُوا لَهُ: أَمِنْ حَدَثٍ كَانَتْ النَّاعِيَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَعَزَّوهُ وَعَجَّبُوا مِنْ صَبْرِهِ فَقَالَ: إِنَّا أَهْلُ بَيْتِ نَاطِعِ اللَّهِ فِيمَا نُحِبُّ، وَنُحْمَدُهُ عَلَى مَا نَكْرَهُ.

* * *

تعزية

أَلْتَمَسَ مَا وَعَدَ اللَّهُ مِنْ ثَوَابِهِ بِالتَّسْلِيمِ لِقَضَائِهِ، وَالِانْتِهَاءِ إِلَى أَمْرِهِ، فَإِنْ مَا فَاتَ غَيْرَ مُسْتَدْرَكَ.

* * *

وَعَزَّى مُوسَى الْمَهْدِيَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ سَلَمَ عَلَى ابْنِ لَهُ مَاتَ، فَجَزِعَ عَلَيْهِ جَزَعًا شَدِيدًا، فَقَالَ لَهُ: أَيْسْرُكَ وَهُوَ بَلِيَّةٌ وَفِتْنَةٌ، وَيَحْزُنُكَ وَهُوَ صَلَوَاتٌ وَرَحْمَةٌ؟

* * *

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: مَا أُعْطِيَتْ أُمَّةٌ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ مَا أُعْطِيَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ قَوْلِهَا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. وَلَوْ أُعْطِيَهَا أَحَدٌ لِأَعْطَاهَا يَعْقُوبُ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿يَا أَسَفًا عَلَى يُوسُفَ، وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهَوَّ كَظِيمٌ﴾^(١).

(١) يوسف: ٨٤.

وَعَزَى رَجُلٌ رَجُلًا بِأَبْنٍ لَهُ: ذَهَبَ وَهُوَ أَصْلُكَ، وَذَهَبَ أَبْنُكَ وَهُوَ
فَرْعُكَ، فَمَا بَقَاءَ مَنْ ذَهَبَ أَصْلُهُ وَفَرَعُهُ؟

* * *

تعازي المملوك

قال العُتْبِيُّ: عَزَى أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ مَلِكَ الْعَرَبِ عَلَى
أَخِيهِ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ أَهْلَ الدَّارِ سَفَرٌ لَا يَحْلُونَ عُقْدَ الرَّحَالِ إِلَّا
فِي غَيْرِهَا، وَقَدْ أَتَاكَ مَا لَيْسَ بِمَرْدُودٍ عَنْكَ، وَأَرْتَحِلُ عَنْكَ مَا لَيْسَ بِرَاجِعٍ
إِلَيْكَ، وَأَقَامَ مَعَكَ مَنْ سَيَظْعَنُ عَنْكَ وَيَدْعُكَ. وَأَعْلَمَ أَنَّ الدُّنْيَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ:
فَأَمْسَ عِظَّةٌ وَشَاهِدٌ عَدْلٌ، فَجَعَلَ بِنَفْسِهِ، وَأَبْقَى لَكَ عَلَيْهِ حُكْمَكَ؛ وَالْيَوْمَ
غَنِيمَةٌ وَصَدِيقٌ، أَتَاكَ وَلَمْ تَأْتِهِ، طَالَتْ عَلَيْكَ غَيْبَتُهُ، وَسُتْسِرَ عَنْكَ رِخْلَتُهُ؛
وَعَدٌ، لَا تَذَرِي مِنْ أَهْلِهِ، وَسَيَّاتِيكَ إِنَّ وَجْدَكَ. فَمَا أَحْسَنَ الشُّكْرَ لِلْمُنْعَمِ،
وَالْتَسْلِيمَ لِلْقَادِرِ! وَقَدْ مَضَتْ لَنَا أَصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءَ الْفُرُوعِ بَعْدَ
أَصُولِهَا! وَأَعْلَمَ أَنَّ أَعْظَمَ مِنَ الْمُصِيبَةِ سُوءُ الْخَلْفِ مِنْهَا، وَخَيْرٌ مِنَ الْخَيْرِ
مُغْطِيهِ، وَشَرٌّ مِنَ الشَّرِّ فَاعِلُهُ.

* * *

لَمَّا هَلَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورُ، قَدِمَتْ وَفُودُ الْأَنْصَارِ عَلَى أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ الْمَهْدِيِّ، وَقَدِمَ فِيهِمْ أَبُو الْعَيْنَاءِ الْمُحَدِّثُ، فَتَقَدَّمَ إِلَى التَّعْزِيَةِ،
فَقَالَ: آجَرَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَهُ، وَبَارَكَ لِأَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا خَلَفَهُ لَهُ، فَلَا مُصِيبَةَ أَعْظَمَ مِنْ مُصِيبَةِ إِمَامٍ وَالِدٍ، وَلَا عُقْبَى
أَفْضَلَ مِنْ خِلَافَةِ اللَّهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ. فَأَقْبَلَ مِنَ اللَّهِ أَفْضَلَ الْعَطِيَّةِ، وَأَصْبَرَ لَهُ
عَلَى الرِّزْيَةِ.

* * *

ولما مات معاوية بن أبي سفيان، ويزيدٌ غائب، صلى عليه الضحَّاك

ابن قيس الفهري، ثم قديم يزيد من يومه ذلك، فلم يقدم أحد على تغزيته حتى دخل عليه عبد الله بن همام السلولي، فقال:
اضبر، يزيد، فقد فارقت ذا مقة واشكز جبء الذي بالملك حاباك
لا رزء أعظم في الأقوام قد علموا مما رزئت ولا عقيب كعقباك
أصبحت راعي أهل الأرض كلهم فأنت ترعاهم والله يزعاك
وفي معاوية الباقي لنا خلف إذا بقيت فلا نسمع بمنعاك
فافتح الخطباء الكلام.

عزى شبيب بن شيبه المنصور على أخيه أبي العباس، فقال: جعل
الله ثواب ما رزئت به لك أجرا، وأعقبك عليه صبورا، وختم لك ذلك بعافية
تامة، ونعمة عاقمة، فثواب الله خير لك منه، وما عند الله خير له منك،
وأحق ما صبر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل.

وكتب إبراهيم بن إسحاق إلى بعض الخلفاء يعزیه: إن أحق من
عرف حق الله فيما أخذ منه من عرف نعمة فيما أبقي عليه. يا أمير
المؤمنين، إن الماضي قبلك هو الباقي لك، والباقي بعدك هو المأجور
فيك، وإن النعمة على الصابرين فيما ابتلوا به أعظم منها عليهم فيما يعاقون
منه.

دخل عبد الملك بن صالح دار الرشيد، فقال له الحاجب: إن أمير
المؤمنين قد أصيب بآبن له وولد له آخر. فلما دخل عليه، قال: سرّك الله
يا أمير المؤمنين فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرّك، وجعل هذه بهذه مثوبة
على الصبر، وجزاء على الشكر.

ودخل المأمونُ على أُمِّ الفضل بن سهل يُعزيها بابنها الفضل بن سهل، فقال: يا أُمّة، إنك لم تَقِدِي إلا رؤيته وأنا ولدك مكانه؛ فقالت: يا أمير المؤمنين، إن رجلاً أفادني ولداً مثلك لَجَدِير أن أجزع عليه.

* * *

لما مات عبدُ الملك بن عمر بن عبد العزيز كتب عمر إلى عمّاله: إنَّ عبد الملك كان عبداً من عبِيد الله، أَحَسَنَ الله إليه وإليّ فيه، أعاشه ما شاء وقَبَضَه حين شاء، وكان - ما علمتُ - من صالحِي شباب أهل بيته قراءةً للقرآن، وتَحَرُّياً للخير، وأعوذ بالله أن تكون لي مَحَبّة أخالف فيها محبة الله، فإن ذلك لا يَحْسُن في إحسانه إليّ، وتتأبّع نعمه عليّ، ولأعلمن ما بكت عليه باكية ولا ناحت عليه نائحة، قد نهينا أهله الذين هم أحقُّ بالبكاء عليه.

* * *

دخل زيادُ بن عثمان بن زياد على سليمان بن عبد الملك وقد تُوفي أبْنه أيوب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ عبدَ الرحمن بن أبي بكر كان يقول: من أَحَبَّ البقاء - ولا بقاء - فَلْيُوطِّن نفسه على المصائب.

* * *

لما مات مُعاوية دخل عطاء بن أبي صَيْفِي على يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين، أصبحتُ رُزئتُ خليفة الله، وأعطيت خلافة الله، فاحْتَسِب على الله أعظم الرزية، واشكُره على أحسن العطية.

* * *

عزى محمدُ بن الوليد بن عتبة عُمَر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، أعدّ لما تَرَى عُدّة تكن لك جُنة من الحُزن وسِتْراً من النار. فقال عمر: هل رأيت حُزناً يُحْتَجّ به، أو غفلة يُنبّه عليها؟

قال: يا أمير المؤمنين، لو أن رجلاً ترك تغزية رجلٍ لِعِلْمِهِ وَأَنْتَبَاهِهِ لَكُنْتَهُ،
ولكن الله قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين.

* * *

وَتُوَفِّيَتْ أُخْتُ لِعَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ دَفْنِهَا دَنَا إِلَيْهِ رَجُلٌ
فَعَزَّاهُ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا، ثُمَّ دَنَا إِلَيْهِ آخَرُ فَعَزَّاهُ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا، فَلَمَّا
رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ أَمْسَكُوا عَنْهُ وَمَشَوْا مَعَهُ. فَلَمَّا بَلَغَ الْبَابَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ
بَوَجْهِهِ وَقَالَ: أَدْرَكْتُ النَّاسَ وَهُمْ لَا يُعْزُونَ بِامْرَأَةٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ أُمًّا، أَنْقَلَبُوا
رَحِمَكُمُ اللَّهُ.

* * *

وُجِدَ فِي حَائِطٍ مِنْ حَيْطَانِ بُيُوتِ مَكْتُوبٍ:
أَضْيِرْ لِدَهْرٍ نَالٍ مِنْكَ فَهَكَذَا مَضَتْ الدُّهُورُ
فَرَحٌ وَحُزْنٌ مَرَّةً لَا الْحُزْنَ دَامَ وَلَا السُّرُورُ

وهذا نظير قول العتّابي:

وَقَائِلَةٌ لَمَّا رَأَتْنِي مُسَهَّدًا كَأَنَّ الْحَشَا مِنِّي تُلْدَعُهُ الْجَمْرُ
أَبَاطُنُ دَاءٍ أَمْ جَوَى بِكَ قَاتِلٌ فَقُلْتُ الَّذِي بِي مَا يَقُومُ لَهُ صَبْرُ
تَفَرُّقُ الْآلِفِ وَمَوْتُ أَحِبَّةٍ وَقَفْدُ ذَوِي الْإِفْضَالِ قَالَتْ: كَذَا الدَّهْرُ

* * *

كتب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المتوكل يُعْزِيهِ بِأَبْنِ لَهُ:
إِنِّي أَعْزِيكَ لَا أَنِّي عَلَى ثِقَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ وَلَكِنْ سُنَّةُ الدِّينِ
لَيْسَ الْمُعْزَى بِبَاقٍ بَعْدَ مَيِّتِهِ وَلَا الْمَعْزَى وَإِنْ عَاشَا إِلَى حِينٍ

وقال أبو عَيَّنة :

فإنَّ أَشْكَ من لَيْلِي بَجُزْجَان طُولَهُ فقد كنت أشكو منه بالبصرة القَصْرَ
وقائلة ماذا نأى بك عنهم فقلت لها لا عِلْم لي فسلي القَدْرَ

* * *

وقال بعض الحكماء لسليمان بن عبد الملك لما أُصِيب بآبئه أيوب :
يا أمير المؤمنين، إنَّ مثلك لا يُوعَظ إلا بدون عِلْمه، فإن رأيت أن تُقدِّم ما
أخَّرت العَجْزة من حُسن العِزاء والصَّبْر على المُصيبة فترضي ربك وتريح
بدنك، فأفعل .

* * *

وكتب الحسنُ إلى عمر بن عبد العزيز يُعزِّيه في أبنة عبد الملك بيت
شعر وهو :

وَعُوْضْتُ أَجْرًا مِنْ فَقِيدٍ فَلَا يَكُنْ فَقَيْدُكَ لَا يَأْتِي وَأَجْرُكَ يَذْهَبُ

* * *

ولما حضرت الإسكندرَ الوفاةَ كَتَبَ إلى أمِّه : أن أصنَّعي طعامًا
يحضره الناسُ، ثم تقدَّمي إليهم أن لا يأكل منه مَحْزُون، ففعلت . فلم
يَبْسُطْ إليه أحدٌ يده، فقالت : ما لكم لا تأكلون؟ فقالوا : إنك تقدَّمت إلينا
أن لا يأكلَ منه مَحْزُون، وليس منَّا إلا من قد أُصِيب بِحَمِيمٍ أو قَرِيبٍ؛
فقالت : مات والله أبني وما أوصى إليَّ بهذا إلا ليعزِّيَني به .

* * *

وكان سهل بن هارون يقول في تَعزِيته : إن التَّهْنِئَةَ بآجل الثَّوَابِ
أوجبُ من التَّعْزِيَةِ على عاجل المُصيبة .

* * *

الباب الثامن

متفرقات

نظرت امرأة إلى جعفر بن يحيى مصلوبًا، فقالت :
- لئن كنتَ في الحياة غايةً، فلقد صرتَ في الممات آيةً! .

* * *

لَمَّا مات الاسكندر وقف عليه أرسطوطاليس، فقال :
- طالما كان هذا الشخص واعظًا بليغًا، وما وعظ بموعظة في حياته
أبلغ من عظته في مماته .

وحُمِلَ إلى أمه في تابوت من ذهب، فقالت :
- جمعتَ الذهب حيًّا، وجمعك ميتًا .

* * *

سأل أزدشير بعضَ الحكماء عن دار بناها، فقال :
- هل ترى فيها عيبًا؟

فقال الحكماء :

- نعم، عيبًا لا يمكنك إصلاحه .

فقال أزدشير :

- وما هو؟

فقال الحكيم:

لك منها خَرْجَةٌ لا عودَ بعدها، أو دخلة لا خروج بعدها.

* * *

قيل لحكيم:

- ما أبعد الأشياء من الناس؟

- قال: الأمل.

فقيل:

- وما أقرب الأشياء منهم؟

- فقال: الأجل.

* * *

عاش نوح، عليه السلام، ما عاش، وقيل له لَمَّا أشرف على الموت:

- كيف وجدت الدنيا؟

فقال: وجدتُ دارًا دخلْتُها من باب، وخرجْتُ من آخر.

* * *

قيل: إنَّ عبد الملك بن مروان هرب من الطاعون، فركب ليلاً، وأخرج غلامًا معه، وكان ينام على دابَّته، فقال للغلام: حدِّثني.

فقال الغلام:

- ومن أنا حتَّى أحدِّثك؟

فقال عبد الملك:

- على كلِّ حال حدِّث حديثًا سمعته.

فقال الغلام:

- بلغني أنّ ثعلبًا يخدم أسدًا ليحميه ويمنعه ممّن يريدّه، فكان يحميه، فرأى الثعلب عقابًا، فلبّجاً إلى الأسد، فأقعدّه على ظهره، فانقضّ العقاب واختلسه، فصاح الثعلب: يا أبا الحارث، أغثني، واذكر عهدك لي. فقال الأسد: إنّما أقدر على منعك من أهل الأرض، وأمّا أهل السماء فلا سبيل لي إليهم.

فقال: عبد الملك: وعظمتي، وأحسنت، ورضي بالقضاء.

* * *

قيل لفيلسوف:

- مات فلان في غربة.

فقال: ليس بين الموت في الوطن والغربة فضل، لأنّ الموت في جميع المواضع واحد، والطريق إلى الآخرة من كلّ مكان سواء.

* * *

يروى أنّ الإسكندر مرّ بمدينة قد ملكها غيره من الملوك، فقال:

- انظروا، هل بقي بها أحد من نسل ملوكها؟

فقالوا: رجل يسكن المقابر.

فأحضره، وسأله عن إقامته، فقال:

- أردتُ أن أُميّز عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدتها سواء.

فقال: هل تتبعني، فأحيي شرفك إن كان لك همّة؟

فقال: همّتي عظيمة إن أنلتنيها.

فقال الإسكندر: وما هي؟

فقال الرجل: حياة لا موت معها، وشباب لا هرم معه، وغنى لا فقر معه، وسرور لا مكروه فيه.

فقال: ليس عندي هذا.

فقال: دعني أتمسه ممّن هو عنده.

فقال الإسكندر: ما رأيت مثله حكيمًا.

* * *

قال الحسن لشيخ في جنازة:

- أترى هذا الميت لو رجع إلى الدنيا كان يعمل صالحًا.

قال: نعم.

فقال الحسن: إن لم يكن ذاك، فكُنْ أنت ذاك.

* * *

قال رجل لأبي الدرداء:

- ما بالنا نكره الموت؟

فقال: لأنكم خربتم آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فكرهتم أن تُنقلوا من العمران إلى الخراب.

* * *

اعتلّ أعرابي، فقليل له: لو تبت؟

فقال: لست ممّن يُعطي على الذلّ، إن عافاني الله تبت وإلا مت هكذا.

* * *

اعتَلَّ الحجاج، فقليل له: ألا تتوب؟

فقال:

- إن كنتُ مسيئًا فليست هذه ساعة التوبة، وإن كنتُ محسنًا فليست ساعة الفزع.

* * *

لما حضرتِ وكيعًا الوفاة، دعا بنيه، فقال:

- يا بني، إنَّ قومًا سيأتونكم قد قرَّحوا جباههم، وعرضوا لحاهم، يدعون أنَّ لهم عند أبيكم دينًا فلا تقضوهم، فإنَّ أباكم قد حمل من الذنوب ما إن غفرها الله لم تضره هذه، وإلا فهي معها.

* * *

لما حضر بشراً الموت، فرح، فقليل له:

- تستبشر بالموت؟!

فقال: أتجعلون قدومي على خالق أرجوه كمقامي على مخلوق أخافه؟

* * *

شاهد رجل على قبر وهو يُكثر البكاء، فقليل له: أعلى قريب أو على صديق؟ فقال:

- على أخصّ منهما، فقد كان لي عدو، فخرج إلى الصيد، فرأى ظبيًا، فتبعه، فعثر بالسهم، فخرّ هو والظبي ميتين، فدُفن، فانتهيت إلى قبره شامتًا به، فإذا عليه مكتوب:

وما نحن إلّا مثلهم غير أنّنا أقمنا قليلًا بعدهم وترحلوا
فها أنا واقف أبكي على نفسي.

قال هارون الرشيد لابن السماك: عِظْني .

وكان بيده شربة ماء فقال له: يا أمير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم. قال: يا أمير المؤمنين لو شربتها وحبست عن الخروج أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم. فقال له: لا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة. وقال ابن شبرمة: إذا كان البدن سقيماً لم ينفعه الطعام، وإذا كان القلب مغرماً لم تنفعه الموعظة.

* * *

روي أن داود عليه الصلاة والسلام بينما هو يسبح في الجبال إذ مر على غار فيه رجل عظيم الخلقة من بني آدم ملقى على ظهره، وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه: أنا دوسم الملك تملك ألف عام، وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش وفضضت ألف بكر من بنات الملوك، ثم صرت إلى ما ترى التراب فراشي، والحجر وسادي، فمن رأيي فلا تغره الدنيا كما غرتني.

* * *

قال وهب بن منبه: خرج عيسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم مع أصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أفرك. فقالوا يا نبي الله إنا جياع. فأوحى الله تعالى إليه أن أئذن لهم في قوتهم. فأذن لهم، فتفرقوا في الزرع يفركون ويأكلون. فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول: زرعي، وأرضي ورثتها من أبي وجدي، فبإذن من تأكلون يا هؤلاء؟ قال: فدعا عيسى ربّه أن يبعث جميع من ملكها من لدن آدم إلى تلك الساعة، فإذا عند كل سنبل ما شاء الله من رجل وامرأة يقولون: أرضنا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، ففرّ الرجل منهم، وكان قد بلغه أمر عيسى، ولكن لا يعرفه. فلما عرفه قال: معذرة إليك يا نبي الله، إني لم أعرفك، زرعي ومالي حلال لك، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: ويحك، هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها ثم ارتحلوا عنها، وأنت

مرتحل عنها، ولاحق بهم ليس لك أرض ولا مال.

* * *

قال وهب بن منبه: أصبت على قصر غمدان وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض صنعاء اليمن، وكان من الملوك الأجلة مكتوباً بالقلم المسندي، فترجم بالعربي فاذا هي أبيات جليلة وموعظة عظيمة جميلة وهي هذه الأبيات:

باتوا على قُللِ الأَجبالِ تحرُسُهُم غلبُ الرجالِ فلم تنفعهم القُللُ
واستَنزلوا من أعالي عزِّ معقلِهِم فأسَكِنوا حفرةً يا بَشَ ما نزلوا
ناداهُم صارخٌ من بعدما دُفِنوا أينَ الأسرَةُ والتيجانُ والجَللُ
أينَ الوجوهُ التي كانت محجَّبةً وكان من دونها الأستارُ والِكَللُ
فأفصَحَ القبرُ عنهم حين ساءلَهُم تلكَ الوجوهُ عليها الدودُ يَفْتَلِلُ
قد طالما أَكلوا دهرًا وما شربوا فأصبحوا بعد ذاك الأكلِ قد أَكلوا

* * *

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان معه صاحب في بعض سياحاته، فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية، وأعطاه ما يشتري به فذهب الرجل وقام عيسى عليه الصلاة والسلام يصلي، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة فقعد ينتظر انصراف عيسى من الصلاة، فأبطأ عليه فأكل رغيفاً، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام رآه حين جاء ورأى الأرغفة ثلاثة، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلا رغيفين. فقال له أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل ما كانا إلا رغيفين، فأكلاهما ثم مرا على وجوههما حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه الصلاة والسلام واحداً منها، فجاءه فذكاه وأكلا منه، فقال له عيسى: بالذي أراك هذه الآية من أكل

الرغيف الثالث؟ فقال ما كان إلا اثنين. ثم مرا على وجوههما حتى جاء قرية فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية، فأنطق الله له لينة فسألها عيسى، فأخبرته بكل ما يراد وصاحبه يتعجب مما رأى، فقال له عيسى: بحق من أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج، فأخذ عيسى عليه الصلاة والسلام بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوزا النهر، فقال الرجل: سبحان الله! فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة، وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام وقيل ثلاث أكوام من الرمل، فقال لها كوني ذهبًا بإذن الله فكانت، فلما رآها الرجل قال هذا مال فقال عيسى: نعم واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث. فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف الثالث. فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: هي لك كلها. ثم فارقه عيسى. وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه، فمر به ثلاثة نفر، فقتلوه. فقال اثنان منهما للثالث: انطلق إلى القرية فأتنا بطعام فانطلق، فلما غاب قال أحدهما للآخر إذا جاء قتلناه، واقتسمنا المال بيننا. فقال الآخر: نعم، وأما الذي ذهب ليشتري الطعام، فإنه أضمر لصاحبيه سوء. وقال أجعل لهما في الطعام سمًا فاذا أكلاه ماتا وأخذ المال لنفسه، فوضع السم في الطعام وجاء فقاما إليه فقتلاه، وأكلا الطعام فماتا. فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام وهم مصروعون حولها. فقال هكذا الدنيا تفعل بأهلها.

* * *

وقال الهيثم بن عدي: وجد غار في جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من ذهب، وعند رأسه لوح من الذهب أيضًا مكتوب فيه بالرومية: أنا سبأ بن نواس خدمت عيص بن اسحاق بن إبراهيم خليل الرب الأكبر، وعشت بعده دهرًا طويلًا، ورأيت عجبًا كثيرًا، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت، وهو يرى مصارع آبائه

ويقف على قبور أحبائه، ويعلم أنه صائر إليهم، ثم لا يتوب، وقد علمت أن الأجلاف الجفاة يستزلونني عن سريري، ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان ويكثر الهذيان، ويترأس الصبيان. فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلاً ومات ذليلاً.

* * *

قال عمرو بن ميمون: افتتحنا مدينة بفارس فدللنا على مغارة فيها بيت فيه سرير من الذهب عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا بهرام ملك فارس كنت أعتاهم بطشاً، وأقساهم قلباً، وأطولهم أملاً، وأحرصهم على الدنيا، قد ملكت البلاد، وقتلت الملوك، وهزمت الجيوش، وأذلت الجبابرة، وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلي، ولم أستطع أن أفندي به من الموت إذ نزل بي.

* * *

روي أن عيسى عليه الصلاة والسلام بينما هو في سياحته إذ مر بجمجمة نخرة فسأل الله في أن تتكلم فأنطقها الله له فقالت: يا نبي الله أنا بلوان بن حفص ملك اليمن عشت ألف سنة ورزقت ألف ولد، واقتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش وفتحت ألف مدينة، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم. فمن سمع قصتي فلا يغتر بالدنيا، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام بكاء شديداً حتى غشي عليه.

* * *

حكى أن رجلين تنازعا في أرض، فأنطق الله تعالى لبنة من جدار تلك الأرض فقالت: إني كنت ملكاً من الملوك، ملكت الدنيا ألف سنة، ثم صرت رميمًا ألف سنة، ثم أخذني خزاف وعملني إناء، فاستعملت ألف سنة، حتى تكسرت وصرت تراباً، فأخذني وعملني لبناً وأنا في هذا الجدار كذا وكذا سنة، فلم تتنازعا في هذه الأرض،

وأنتم عنها زائلون وإلى غيرها منقلبون.

* * *

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لما رجع من صفين ودخل أوائل الكوفة رأى قبراً. فقال قبر من هذا؟ فقالوا قبر خباب بن الأرت فوقف عليه وقال: رحم الله خباباً أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهدًا، وابتلي في جسمه آخرًا ألا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ثم مشى فاذا هو بقبور فجاء حتى وقف عليها وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، وبكم عما قليل لاحقون. اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد وعمل ليوم الحساب، وقنع بالكفاف ورضي عن الله تعالى.

* * *

قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضوان الله عليه: ما عندك من ذكر الموت يا أبا حفص؟ قال: أُمسي فما أرى أتني أصبح، وأصبح فما أرى أني أُمسي؛ قال: الأمر أوشك من ذلك أبا حفص، أما إنه يخرج عني نفسي فما أرى أنه يعود إلي.

* * *

قال أبو عمرو بن العلاء: لقد جلستُ إلى جرير وهو يُملئ علي كاتبه:

* وَدَعُ أُمَامَةً حَانَ مِنْكَ رَجِيلُ *

ثم طلعت جِنَازَةً فَأَمْسَكَ وقال: شَيَّبَنِي هَذِهِ الْجَنَائِزُ؛ قلت: فَلِمَ تَسُبُّ النَّاسَ؟ قال: يَبْدَأُونِي ثُمَّ لَا أَعْفُو، وَأُعْتَدِي وَلَا أَبْتَدِي. ثم أنشد يقول:

تُرْوَعُنَا الْجَنَائِزُ مُقْبِلَاتٍ فَتَلْهُو حِينَ تَذْهَبُ مُذْبِرَاتٍ
كَرْوَعَةُ هَجْمَةٍ لِمَغَارِ سَبْعٍ فَلَمَّا غَابَ عَادَتِ رَاتِعَاتِ

* * *

فهرس المحتويات

صفحة

المقدمة	٥
الباب الأول: من الدين	٧
- الفصل الأول: من الديانة الإسلامية	٩
- الفصل الثاني: من الديانة المسيحية	١٣
- الفصل الثالث: من الديانات الهندية	١٤
الباب الثاني: من الأمثال	١٧
- الفصل الأول: من الأمثال العربية	١٩
- الفصل الثاني: من الأمثال العالمية	٢١
- الفصل الثالث: من الأمثال اللبنانية	٢٣
الباب الثالث: من الحكمة	٢٥
- الفصل الأول: من أقوال الحكماء العرب	٢٧
- الفصل الثاني: من أقوال الحكماء الأجانب	٣١
- الفصل الثالث: من أقوال الشعراء العرب	٣٨
الباب الرابع: عند الاحتضار	٤٩

٥٩	الباب الخامس: عند القبر
٦١	- الفصل الأول: القول عند المقابر.....
٦٣	- الفصل الثاني: الوقوف على القبور وتأبين الموتى.....
٧١	- الفصل الثالث: ما كتب على القبور.....
٧٧	الباب السادس: في الرثاء
٧٩	- الفصل الأول: في رثاء الذات.....
٨٣	- الفصل الثاني: في رثاء الولد.....
٩٢	- الفصل الثالث: في رثاء الأخ.....
١٠٠	- الفصل الرابع: في رثاء الزوجة.....
١١٣	- الفصل الخامس: في رثاء الزوج.....
١١٥	الباب السابع: في التعازي.....
١٢٩	الباب الثامن: متفرقات.....

سلسلة «أروع ما قيل»

أروع ما قيل في الوصف	أروع ما قيل في الاجتماعيات
أروع ما قيل في الوطنيات	أروع ما قيل في الإخوانيات
أروع ما قيل من الأدعية	أروع ما قيل في الحب والغزل
أروع ما قيل من أغان وأشعار للأطفال	أروع ما قيل في الحكمة
أروع ما قيل من الأمثال	أروع ما قيل في الخمرة ومجالستها
أروع ما قيل من الحكايات ٢/١	أروع ما قيل في الرثاء
أروع ما قيل من الخطب	أروع ما قيل في الزهد والتصرف
أروع ما قيل من الرباعيات	أروع ما قيل في الزواج
أروع ما «كُتب» من الرسائل	أروع ما قيل في النخر والحساسة
أروع ما قيل من الطرائف	أروع ما قيل في المديح
أروع ما قيل من قصص العشاق ٢/١	أروع ما قيل في المرأة
أروع ما قيل من الموشحات	أروع ما قيل في المراثي
أروع ما قيل من النوادر	أروع ما قيل في الهجاء
أروع ما قيل من الرصايا	أروع ما قيل في الوجدانيات